

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00972 7714

03-84266

Part 16

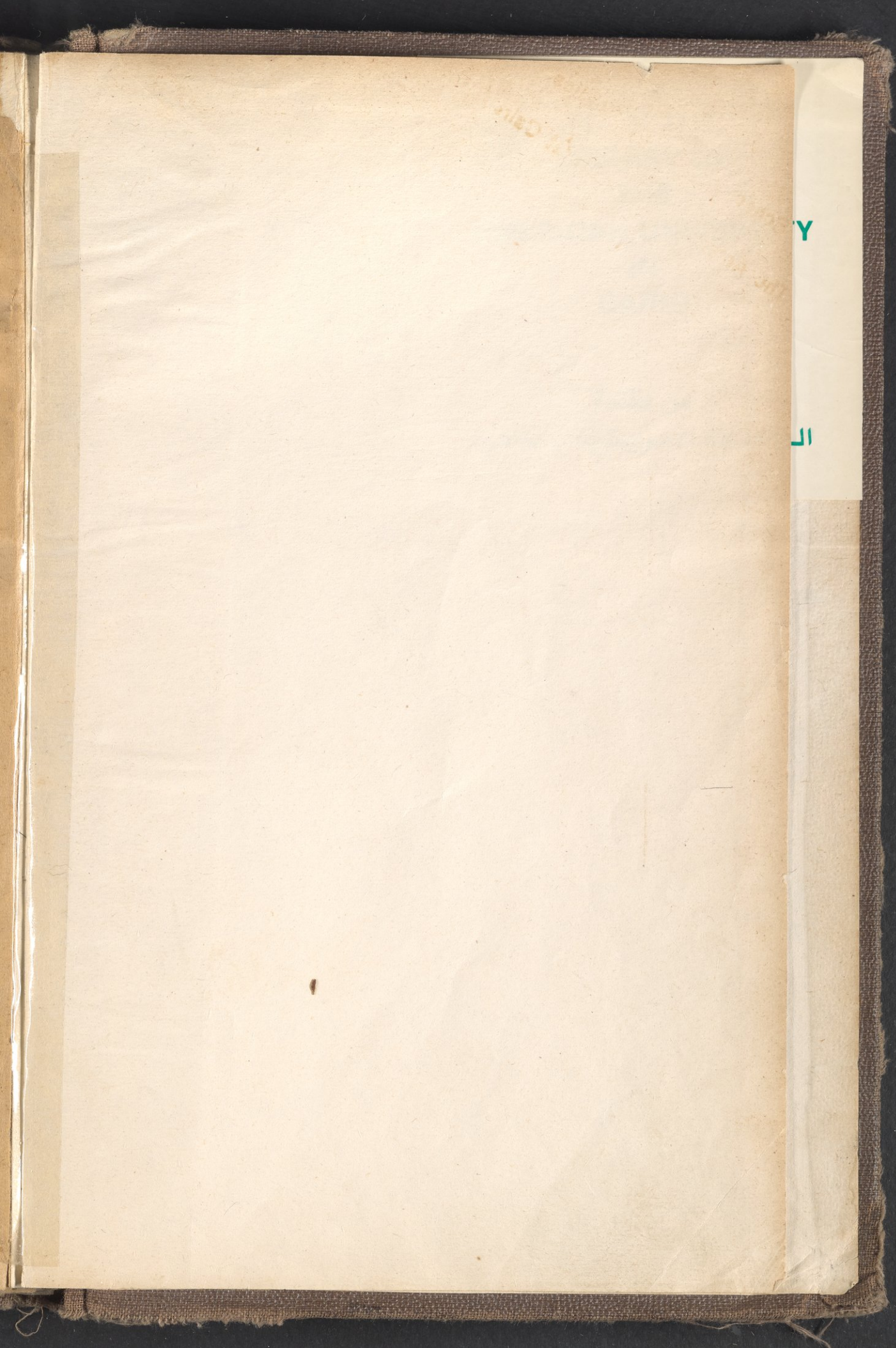


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

Ch. Brown

2.
19



المسكيات

مسكيات اللغة العربية

لما فلا اخفقنا في تعليمها ؟ وكيف نعلمها

PJ

6066

A7

1945

'Arafah, Muhammad

Mushkilat al-Lughah al-
Arabiyah

محمد عرفة

عضو جماعة كتّاب العلماء

مطبعة النسيان

492.7
Ar 11P
SOS

218
no. 22

28286

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أساليبنا في الحياة ، الموروث منها ، احترامنا إياه ، عدم محاولة تغييره ، عدم نقده تحت ضوء العلم ، عذر المتقدمين في اصطناع هذه الأساليب ، عدم عذرنا ، أخص خصائص هذا العصر ، اعتزازه بالعلم ، الجديد من أساليبنا ، تقايدنا فيه دون بحث ، عدم استشارة العلم فيه ، الغزم على أن نستشير العلم في أساليبنا ، البدء بأسلوب تعليم اللغة العربية .

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد .
ففي مصر وفي بلاد الشرق الإسلامي أساليب في التعليم والتربية ، وفي الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، لو استشير فيها العلم لنادى بأصلاحها ، ولو سرنا وراءه لأصلحها ، أو لهدانا إلى ما هو خير وأقوم منها .
هذه الأساليب ترمى إلى غايات خاصة ، وأغراض معينة ، ولكنها

لا تؤدي إليها ، ولا تصل بيننا وبين ما نشد من غايات وآمال ، وقد
ورثناها عن القدماء فيما ورثناه ، وعكفنا عليها ، فلم نحاول لها تغييراً
ولا اصلاحاً ؛ وكان لأبائنا الأقدمين العذر في اصطناع هذه الأساليب ، لأن
ذلك كان مبلغ علمهم ، ومنتهى جهدهم ؛ أما نحن فلا عذر لنا ، لأننا نعيش
في عصر أخص خصائصه وأوضح سماته ، نضج العقل البشري ، وبلغ
المعرفة الإنسانية غاية كبيرة في شتى ألوان المعرفة والثقافات ، وطموح
عقل الإنسان الى السير الى أبعد الغايات في هذا السبيل . وقد حفر تقدم
العلوم الناس الى استقلالها في اصلاح أساليب حياتهم ، والى الاستفادة منها
في خطواتهم الى الإصلاح ؛ ولكننا لا نستضيء في مشكلاتنا العقلية
والعلمية ولا فيما سواهما بضوء العلم الصحيح ؛ وكأننا نعيش في العصور
الخاليات .

نكرر ما قال القدامى ولا نزيد فيه ، ونأخذ جملة يختلط فيها المنتج
بالعقيم ، والشوك بالثمر ؛ وألفنا ذلك ، حتى ساغ في عقولنا وأذواقنا
ما لا يستساغ ، ولم نفكر في شيء منه ، ولم نسع الى اصلاح ما لا بد
لليقظ الطموح من اصلاحه ، كأنما نعتقد أنه نظام من أنظمة الكون ،
وسنة من سنن الوجود ، لا يقبل تغييراً ولا تبديلاً .

أقل تفكير فيه يذبثنا بعيوبه ، وأقل تفكير في هذه العيوب يذبثنا
بوجوه اصلاحها ، ولكننا لم نفكر فيه ، ولم ندر ما عيبه ، ولم نهتد الى
وجوه الإصلاح فيه ، كأنما كتب علينا أن نسير في الحياة مغمضين
العيون ، أو أن نبصر بعيون من تقدمونا ، ونسمع بأذانهم ، فلا نرى

الا ما رأوا ، ولا نسمع الا ما سمعوا ؛ ولو فكرنا بمقولنا ، ونظرنا بعيوننا ،
وسمعنا بأذاننا ، كما فعل من تقدمونا ، لأصلحنا تراثنا ، ونمينا علومنا ،
ولا ننتفعنا بهذه التركة التي خلفها لنا الآباء ، ولورثناها أبناءنا وأحفادنا
وهي أنمي مما ورثناها الآباء والأجداد .

هذا تقليدنا الموروث ؛ وليس طريقنا المستحدث بأحسن حالاً ،
ولا بأقوم طريقة ، فلقد اقتبسنا بعض الأساليب فيما اقتبسنا من الأجانب
المخالطين لنا ، ومن الأمم التي ننظر إليها بعين الإكبار والأعظام ، اقتبسناه
وقلدنا فيه الأمم الأخرى ، دون تبصر أو اختبار ، ودون أن ننظر فيه
لنرى أصالح أم فاسد ، أموافق لمزاجنا النفسى أم غير موافق ، حتى
ننتفع به ولا يبالنا من ورائه ضرر ، فكان تقليدنا في النافع والضار ،
والموافق لروحنا والمخالف ، آمناً به ، واستسغناه ، وألفناه ، وأزلناه من
نفوسنا منزلة جل بها عن النقد والتمحيص ، وعن الشك والتغيير . وهذا
أيضاً لو استشير فيه العلم لميز الذهب الخالص من البهرج الزائف ،
ولبصرنا ما نأخذ منه وما ندع ، وما يوافق طباعنا ومزاجنا النفسى
وما يخالف ، وما ينفعنا وما لا ينفعنا ، وما هو عند أهله مرض يودون
التخلص منه ، وما هو صحة يودون الإبقاء عليه ؛ ولبصرنا أنه لا يصح
التقليد فيما هو مرض باعتراف أهله ، وأخذ الصالح والطالح جميعاً .

هذا هو شأننا فيما ورثناه وما اقتبسناه .

ولقد كان ذلك كله باعثاً لى على أن أفكر فى الأمر ، وحافزاً لى على
أن أبذل كل ما أستطيع من جهود متواضعة فى سبيل خير الأمة والنشء

والثقافة ، فعزمت على أن أقصد إلى أسلوب ، أسلوب ، من أساليبنا في الحياة ، وإلى بعض علومنا ، فأبحثه تحت ضوء العلم لفتبين عيوبه ، وأوضح رأي العلم فيه وفيما يشير به من إصلاح أو تبديل ، ثم أعرض نتائج البحث على أولى الأمر وقادة الفكر في مصر ، مؤملاً أن يشاطروني الشعور بضرورة الإصلاح ، وأن يقوم كل غيور على مجد الوطن وحرص على مستقبل الشباب والثقافة في مصر بما يستطيع القيام به في سبيل تحقيق آمال الأمة في الإصلاح .

ولعلني بهذه الدعوة أستطيع أن أفيد أمتي كما أفدت منها ، وأن أجزئها خيراً بخير ، وإحساناً بإحسان .

وأول ما أبدأ به أسلوب تعليم اللغة العربية ، فسأحاول أن أبحثه ، وأبين عيوبه ، وأذكر ما يشير به العلم من أسلوب ، ولعل هذه الدعوة تلقى ما أريده من توفيق يشجعني على المضي في السبيل الذي اعتزمته ، والمنهج الذي أردته ، « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله » .

عرض الآراء المعاصرة

في تيسير اللغة العربية ونقدها

رأى من يقول بوجوب التوفيق بين العامية والعربية ، بيان أن ذلك يؤدي إلى إحداث لغة جديدة ، لا هي بالعامية ولا هي بالعربية العربية لغة القرآن فيجب الاحتفاظ بها ، العربية أداة التفاهم بين ثمانين مليوناً ، العربية لغة تراثنا العقلي ، رأى من يشير باصطناع العامية ، العامية تسجننا في سجن لا نتفاهم فيه مع جيراننا ولا نتفاهم فيه مع أجدادنا رأى من رأى إشار اللهجات العربية التي توافق العامية ، بيان أن ذلك لا يحل المشكلة .

شعر رجال التربية والتعليم في مصر منذ زمن طويل بإخفاق المعاهد المصرية المختلفة في تعليم اللغة العربية ، فهبوا يتعرفون أسباب هذا الإخفاق ، ويعالجونه بالوسائل التي يرونها . ألفوا اللجان ، وعقدوا المؤتمرات ، وبحثوا البحوث المختلفة ؛ فمرة يرون الإخفاق من صعوبة النحو فيمنصرفون إلى تسهيله ، ومرة يرونه من كثرته فيمنصرفون إلى تقليله ؛ ومرة يرونه من قلته فيمنصرفون إلى تكثيره ، ومرة يرونه من مدرس اللغة العربية فيعمدون إلى إصلاحه وحسن اختياره والعمل على توسيع ثقافته ، ومرة يرى بعض الباحثين أن هذا الإخفاق إنما هو من آثار البعد ما بين

العامية والعربية فيشير بالتقريب بينهما بأن تنزل كلتاهما عن بعض خصائصها لتقرب من الأخرى . وهذا معناه إعدام اللغتين واصطناع لغة لا هي بالعربية ، ولا هي بالعامية ، وليس هذا إصلاحاً ، وإنما هو خضوع للحالة الراهنة ، وإقرار الخطأ ، والعجز أمام اللحن والتحريف .

والاعتبارات الدينية والاجتماعية والتاريخية تقضى علينا بالاحتفاظ باللغة العربية كما هي تدب في عروقها دماء القوة والحياة .

أما الاعتبارات الدينية فإنها لغة القرآن والسنة ، ومنها يأخذ المسلمون دينهم وعقائدهم وأخلاقهم وعباداتهم وأحكام معاملاتهم ، وهم يحرسون على اللغة العربية أشد الحرص ، ليفهموا بها كتاب الله وحديث رسوله ، فيبقى ذلك الينبوع الذي يستقون منه متدفقاً ثراً ، ويخشون أعظم الخشية أن يصبح غوراً فيفقده وهم في مسيس الحاجة إليه .

وهم لا يرضون أن تنبد اللغة العربية كما بادت أخواتها من اللغات السامية كالعبرانية أو السريانية ، فيصبح القرآن لا يقرأ ولا يفهم إلا في المساجد وعند أداء الشعائر ، كما صارت العبرانية والسريانية لا يقرآن إلا في الصوامع والبيع .

وأما الاعتبارات الاجتماعية فإن اللغة العربية الآن لغة عامة ، فهي لغة شمال افريقية والجزء الغربي من آسيا ، وسكانها يبلغون أكثر من ثمانين مليوناً من الأنفس ، إذ أن اللغة العربية لغة الكتابة في هذه الأقطار جميعها ، ومنها تفرعت لهجاتهم ، ولحرصهم على اللغة العربية دائماً لا تبعد اللهجات عنها ، وكذلك لا تبعد لهجات الأقطار بعضها عن بعض بعداً يجعل التفاهم بين أهلها متعذراً .

وقد ربطت هذه اللغة بينهم برباط اجتماعي وثيق ، وسهلت سبيل
 التعارف والتآلف ، فأصبح المصري مثلاً يسافر شرقاً إلى الشام أو الحجاز
 أو العراق ، ويسافر غرباً إلى ليبيا وطرابلس وتونس والجزائر ، ويسافر
 جنوباً إلى بلاد السودان وما وراءها فيرى أهلاً بأهل وجيراناً بجيران ،
 يحل بين قوم يفهم عنهم ويفهمون عنه ، ويألفهم ويألفونه ، وكأنه لم يبرح
 بلده ، ولم يفارق موطنه ، ذلك بفضل اللغة العربية وما يسرت من تفاهم ،
 وكذلك شأن السوري والعراقي والحجازي إذا حل بهذه الأقطار ، وقد
 كان ذلك سبباً في زيادة التعاون وإحكام روابط الأخوة والحب بين شعوب
 الشرق العربي ، وفتح طريقاً إلى الوحدة العربية التي ينشدها كل محب
 للشرق وللعرب ، وستحقق إن شاء الله بفضل هذه اللغة .

وقد أدى ذلك إلى سهولة التجارة وتبادلها بين هذه الأقطار ، كما أدى
 إلى تبادل الثقافة وسائر ألوان الإنتاج في العلم والمعرفة والتفكير ، وصار
 المؤلف في مصر لا يؤلف لوطنه وحده ، وإنما يؤلف لجميع هذه الأقطار ،
 كما صار طابع الكتب وناشرها لا يطبع أو ينشر لمصر فحسب ، وإنما يطبع
 لهذه الأقطار ولبلاذ الهند والملايو وجاوه وسومطره وبلاد الصين ، كذلك
 شأن المؤلفين والناشرين في هذه الأقطار ، وذلك كله بفضل اللغة العربية .
 وأما الاعتبارات التاريخية فإن علوم آبائنا وأجدادنا وثقافتهم
 وتراثهم العقلي قد وضعت باللغة العربية ، فنحن نحافظ عليها ما حافظنا
 على هذا التراث . وهذا هو أيضاً ردنا على النفر القليل الذين دعوا إلى
 العامية وإحلالها محل اللغة العربية .

أتدرون ماذا نكون إذا نحن اتبعنا مشورة أولئك وهؤلاء من
 يشيرون علينا بأن تتنازل العربية عن بعض خصائصها لتقرب من العامية ،
 أو بأن نصطنع العامية بدل العربية ؟ إننا بذلك نعمد إلى تلك الصلات
 التي بيننا وبين جيراننا الشرقيين فنقطعها فنصبح نتكلم بلغة لا يفهمونها
 ويتكلمون بلغة لا نفهمها .

ونعمد إلى تلك الصلات التي بيننا وبين أسلافنا الماضين فنقطعها أيضاً
 ونصبح لا نتصل بعلومهم ولا ثقافتهم ، لأنها باللغة العربية ونحن نصطنع
 العامية ؛ ونكون قد سجننا أنفسنا في سجن العامية المظلم لا يفهمنا أحد
 ولا نفهم أحداً بعد أن كنا في ميادين العربية الفسيحة التي تمتد شرقاً
 وتضرب في بلاد الهند والصين ، وتمتد غرباً وتضرب في سواحل المحيط
 الأطلسي ، وتمتد جنوباً وتضرب في المحيط الهندي ، وتمتد شمالاً وتضرب
 في آسيا الصغرى وبلاد الأناضول ، وتمتد في الماضي وتضرب في عهود
 العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين وعصر البعثة المحمدية وما قبل البعثة
 من عصور العرب الأولين .

✓ ومرة يرى بعض الباحثين أن يقرب بين العربية والعامية بأن يؤثر
 كل لهجة عربية توافق العامية ، فيؤثر اللغة التي تلزم الأسماء الخمسة
 الألف ، لأن العامية تنهج في أسلوبها هذا المنهج ، ويؤثر اللغة التي تعرب
 جمع المذكر السالم إعراب حين ، لأن العامية تفعل ذلك .
 وهذا لا يحل المشكلة ، لأن العامية لا تلتزم نهجاً واحداً خاصاً في
 أسلوبها ولا تلتزم لغة من هذه اللغات . وأيضاً فكثير من العامية ليس

له نظير في لهجة من اللهجات العربية .

ثم ماذا يفعلون ؟ أوجبون هذه اللغة ويخطئون ماعداها ، أم يجوزونها ويخبرون بينها وبين اللغات الأخرى ؟ فإن كان الأول أدى ذلك إلى أن المتعلم على هذه الطريقة يخطئ القرآن وكلام رسول الله وكلام العرب إذا جاءت على غير هذه اللغة . وإن كان الثاني لم يعد ذلك تسهيلاً لأنه لم يفعل شيئاً سوى أن زاد في الطنبور نغمة ، فبعد أن كان يعلم لغة واحدة في جمع المذكر السالم هي اللغة العامة القياسية أصبح يعلم اللغة العامة واللغات الأخرى القليلة .

ثم هذا يضيع على المسلمين الغرض الذي يرمون إليه ، ويحرصون عليه أشد الحرص ، وهو الاحتفاظ بلغة القرآن ولهجته وطريق أدائه .
والذين يدعون إلى تفسير قواعد النحو والصرف والبلاغة أقرب إلى الصواب ؛ ونحن نؤمن كما يؤمنون بضرورة هذه الخطوة ، وإن كنا نخالفهم فيما ذهبوا إليه من قواعد ، كما بينا ذلك في حينه ، ونرى أن التسهيل جزء من كل من الإصلاح المنشود .

فأنت ترى من هذا كله أن المشكلة على ما هي عليه لم تحل ولم توشك أن تحل . وسنحاول إن شاء الله في الفصول الآتية أن نحل هذه المشكلة التي استعصى على الزمن حلها .

اخفاقنا في تعليم اللغة العربية

ونتائج الخطيرة

شكر جميع الذين ساهموا في بحث مشكلة اللغة العربية سواء أوقفوا أم لم يوقفوا ، نبل أغراضهم
بيان اننا أخفقنا حقا في تعليم اللغة ، كراهية الشباب لعلوم اللغة ،
اضرار اصطناع لغة للخطاب وأخرى للكتاب ، منها كتابة العلوم
والآداب بلغة لا يفهمها الشعب فتبقى الأمة جاهلة ، العمل على تيسير
اللغة العربية عمل على ترقية المتكلمين بها

بينما في مقالنا السابق جهود رجال العلم والتربية في سبيل إصلاح تعليم
اللغة العربية ، تلك الجهود التي إن أخطأها التوفيق فلن يخطئها أن تكون
حقيقة بالشكر وعرفان الجليل

إن هذه الجهود المختلفة دليل على عنايتهم باللغة العربية ، وحرصهم
عليها ، ومعرفتهم بقدرها ، ودليل على أنهم يحبون شباب هذه الأمة ،
ويودون أن يسهلوا عليهم ما صعب ، ويقربوا إليهم ما بعد ، وأن يسهروا
ليناموا ، وأن ينصبوا لهم ليجدوا السعادة والراحة

وهذا وحده جهد مشكور ، وصنيع غير مكفور ، جدير بالإجلال

والتعظيم ، سواء أوفقوا فيما حاولوا أم لم يوفقوا .

ورب قائل يقول : لقد وضعت أن المعاهد في مصر أخفقت في تعليم اللغة العربية ، وأخذتها مقدمة مسلمة ، وكنت بحاجة إلى أن تقيم عليها الدليل ، فلملها لم تحقق في تعليم اللغة ، ولعلها نجحت أعظم النجاح ، ولعل ما هو مشهور بين رجال التعليم من أنها أخفقت في هذه المهمة — من القضايا التي اشتهرت لغرض من الأغراض ، فإذا نقدت تبين خطؤها .

فلسنا نسايرك حتى تقيم الدليل على هذا الإخفاق

وأقول إنى أوافق هذا القائل على أنه لا بد من أن يقام الدليل على هذه المقدمة ، ولا يصح أن تترك دون بيان

إن المرء يكون قد أتقن لغة ما إذا كان يتكلم ويقرأ ويكتب بهذه اللغة ، جاريًا على قواعدها ، مراعيًا قوانينها ، لا يلحن فيها ولا يخطئ ، وأن المدرسة تكون قد نجحت في تعليم اللغة إذا كان الذين تخرجوا فيها جميعهم أو أكثرهم على هذه الصفة ؛ فهل من تخرجوا في مدارسنا كذلك ! أما الكلام باللغة العربية فلا تكاد تجد أحداً يتكلم بها ، فالشعب كله يصطنع في التفاهم والتخاطب اللغة العامية ، وليس من الناس من يصطنع اللغة العربية إلا في الندرة وعلى سبيل الشذوذ ، حتى أن دروس اللغة العربية تلقى بالعامية ، فقد دخلت العامية على العربية حجرات دروسها ، وغزتها في معاقلها ، وأخص الأماكن بها

ومن المضحك حقاً أن تجد مدرس النحو أو الصرف أو البلاغة أو مفسر النصوص العربية من شعر ونثر يلقى دروسه وقواعده بلغة عامية ،

لا يراعى ما يقول من قوانين ، ولا يقوم لسانه بما يسرد من قواعد
 فـأما الكتابة والقراءة بهـا ، فلا يقرأ باللغة الفصحى ولا
 يكتب إلا فئة قليلة ، تمكنت من حفظ لسانها من الخطأ عند القراءة
 والكتابة ، وجمهرة المتعلمين لم يصلوا إلى هذه المنزلة ، فالشباب يتخرج في
 المدرسة ، أو في المعهد ، ولسانه لا يكاد يقيم جملة ، أو يعرب كلاما ، ولا
 يستطيع أن يعبر عن خبايا نفسه بأسلوب صحيح مستقيم
 وإذا لم يكن هذا اخفاقا ، فماذا يكون الإخفاق ؟

و كما لم توفّق مدارسنا في الغاية لم توفّق في الوسيلة ، أو قل أنها لم
 توفّق في الغاية لأنها لم توفّق في الوسيلة ؛ فالوسيلة إلى تعلم اللغة هي
 دروسها ، ولما تستطع مدارسنا أن تحببها إلى التلاميذ ، فهم يأتون إليها
 متثاقلين ، ويستمعون إليها كارهين ، وهم يبنضونها بغضاً عملاً ما بين
 جوانحهم . فالتحوي عندهم ثقيل بغيض ، وكذلك الصرف ؛ وعلم البيان
 — الذي قال فيه بعض العلماء : أنه لا ثواب في تعلمه ، يشير إلى أنه
 لا مشقة فيه على المتعلم ، وهو يطلب لما فيه من لذة ، فجزاؤه فيه — قد بغضته
 إليهم هذه المدارس أيضاً ؛ وليس العيب في ذلك على الشباب ، لأنهم
 يدرسون الهندسة والحساب والطبيعة في غير ضيق ولا حرج ، بل يدرسونها
 في شغف ومحبة ، أما العيب على دروس اللغة العربية وحدها .

فلا عجب بعد ذلك أن لم ينفقوا بهذه الدروس ، لأن الانتفاع بالشيء
 على قدر المحبة له ، والرغبة فيه

هذا شيء مخيف حقاً ، له نتائج خطيرة ، فإما أن نعمل على تسهيل

الارتفاع باللغة العربية وتيسيرها على الدراسين والمتعلمين وتزيين علومها في قلوبهم ، واما أن نتحمل أمام التاريخ والأجيال عواقب هذا التفريط والإهمال ، لأن الشيء البغيض المملول لا يعمر طويلا ، ولا يمكن أن يكره الناس عليه دائما

وهناك أمر آخر ينتج من الخيبة في تعليم اللغة العربية ، يخشاه رجال الاجتماع أعظم الخشية ، ويشفقون منه أشد الإشفاق ، وهي بقاء الحال على ما هي عليه في مصر ، من اصطناع لغة للخطاب ، وأخرى للكتاب ، بينها وبين جمهور الشعب بون شاسع ، وعقاب صعب

وانما كانوا يخشونه ، ويشفقون منه ، لأن ذلك يؤدي الى اطالة أمد جهل الأمة وتأخرها ، لأن العلم والأدب قد كتبوا بلغة لا يفهمها جمهور الشعب ، وهي العربية ، فلا سبيل الى وصوله اليها

أما اذا نجحت المدرسة في تعليم العربية ، وتكلم بها المتعلمون وهم مخالطون للشعب ، فعلى مرور الزمن يسهل عليه فهم اللغة العربية ويتسرب إليه كثير من مفرداتها وتراكيبها ، وربما علمها فصارت لغة الخطاب ، ولغة الكتاب ، وهذا كسب ليس بالقليل ، فكل ما كتب من علوم وأخلاق وآداب يكون حينئذ في متناول جمهور الشعب ، فيرقى الى الذروة التي ينشدها له المصلحون

وهناك طائفة من رجال الاجتماع ترى أنه اذا خابت المدرسة في تعليم العربية ، وخابت الأمة في اصطناعها وفي رفع لغة الحديث الى اللغة التي تكتب بها العلوم والآداب ، فلا مناص من كتابة العلوم والآداب باللغة التي

تفهمها الأمة ، لتنتفع بها ، ولتبلغ الأمل المنشود ، لأنه خير للأمة أن
تخسر اللغة العربية وتكسب العلم الذي به نماء عقولها ، والآداب التي بها
تقويم أخلاقها ، من أن تريح العربية وتخسر العلم والأدب

فأنتم ترون أن الأمر جد خطير ، وأنه يعني حياة اللغة العربية أو
موتها ، ونجاح المعلمين في تعلمهم أو أخفاقهم ، ورق الأمة أو انحطاطها
لذلك يجب أن نعمل جاهدين ، وأن نجهد مخلصين ، حتى نعرف
الأسباب في هذا الإخفاق ، وأن نفعل الممكن وغير الممكن لنجعل تعليمها
ناجحاً ، ولنحجب درسها الى التلاميذ ، وبذلك نتقي هذه النتائج السيئة ،
ونوفر على الشباب وقته وجهوده ونحمي اللغة العربية من الضياع والموت
هذا مادعا رجال العلم الى معالجة هذه المشكلة

وهذا مادعاني أيضاً الى أن ألقى بدلوى في الدلاء ، وسأعرض بحتى
على القارئ ، وأولى الأمر في مصر ، وفي غير مصر ، ولعل هذه الدعوة
تلقى ما أقدره لها من توفيق

*affective
domain*

درس أسلوب تعليم اللغة العربية

وبيان عيوبه

ليس فيما جئت به من أسلوب تعليم اللغة جديد ، اقتباسه من العامة ومعلمي الصناعات ، الجدة في نقد القواعد ، عناية الأمة الإسلامية باللغة العربية ، استنباطها علومها المختلفة ، اصطناع القواعد في تعليم اللغة ، درس أساليب الصناعات في تعليم تلاميذهم ، اعتمادهم على المران والتكرار ، سر الأخفاق في تعليم العربية الاعتماد على القواعد ، سر النجاح في تعليم الصنعة الاعتماد على المران والتكرار ، إصلاح أسلوب تعليم اللغة أن نأخذ بأسلوب تعليم الصناعات من المران والتكرار ، التشكيك في ذلك ، الوعد بأقامة البرهان عليه

يتوقع القراء أنني سأتيهم في مشكلة اللغة العربية بحلول مطولة وآراء معقدة ، تثقل على العامة ولا يسميها الا الخاصة

وانني سأتيهم بالجديد الذي لم يقرع أسماعهم ، ولم يخطر لهم ببال وأني أقول للقراء أن ما سأعرضه عليهم قسمان : الأول نقد الطريقة التي تسلكها المدارس في تعليم اللغة ، والثاني نقد علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة ، وابطال الباطل من قواعدها ، واحلال الحق محله فأما نقد أسلوب تعليم اللغة فإني أحب أن أطمئن القراء من جهته ،

فإن الحلول التي جئت بها سهلة لا غموض فيها بسيطة . لا تركيب فيها ؛
وهكذا شأن الحقيقة تمتاز بالسهولة والبساطة ، وقد أخذتها من العامة
وأشباه العامة ، أخذتها من الحائك اذ يعلم الحياكة ، والحداد اذ يعلم
الحدادة ، والنجار اذ يعلم النجارة

وليس فيما جئت به في هذا الموضوع جدة ، وإنما هو قول معاد
مكرور ، قاله علماء الشرق قديماً وعلماء الغرب حديثاً ، حتى أنني ترددت
في عرضه على الناس ، ولكن يشفع لي في عرضه أن قومي لم يعملوا به
كأنهم لا يعرفونه ، فقلت لعلهم يحتاجون الى الإقناع به ، واقامة الدليل
عليه ، وإرادة الكلام على البرهان والإقناع ، ليوافق طبقات الناس ،
وكذلك فعلت

وأما نقد القواعد وبيان الباطل منها ، وإحلال خير منها محلها . فهي
مسائل فنية يصعب فهمها الا على الدراسين ، وهي جديدة قد نشأت من
الدرس الطويل ، والتأمل والتنقيب في هذه العلوم ، وفيها لذة ومتمعة ،
فسيرى فيها القراء مصاولة العقول ومقارعة الآراء ، وسيرون علوما كانت
تخاط بهالة من التقديس تنهار وتهدم ، وعلوما أخرى حلت محلها وأخذت
مكانها ، فبدت أعلى منها وأسمى ، وما نهدم ما نهدم الا عن بيئة وحجة .
فما عدله الدليل فهو المخرج المدخول

فإن كان ما جئت به حقاً للقراء خيره وبركته ، ولي ما كابدته من
النصب والهم ، وإن كان باطلا فعلى تبعته وعاره ، وخلاصهم ذم
ربما لم تكن أمة في العالم بلغة ما كما عنيت الأمم الإسلامية باللغة

العربية ، وقد عظمت هذه العناية واتصلت وتلاحقت مدة ثلاثة عشر قرناً ، فتوافر العلماء عليها في القديم يدرسونها من نواحيها المختلفة ، درسوا مفرداتها وعرفوا التغيرات التي تلحق المفرد ، والأوزان التي يكون عليها ، وكيف تتصرف الكلمة في الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة الخ . وعرفوا قواعد ذلك وسموه علم الصرف ، وعرفوا ما تدل عليه كل كلمة من معان ، والشواهد التي يستشهد بها على هذه المعاني ، ودونوا ذلك وسموه علم متن اللغة ، ودرسوا نظمها وتراكيبها المختلفة ، وما يفيد كل نظم وتركيب ، ووضعوا قوانينه وسموه علم النحو . ودرسوا فضيلة الكلام ، ووضعوا القواعد التي يحسن بها الكلام وسموها علم البلاغة . ودرسوا ما في لغة العرب من شعر ونثر وبينوا معانيه . ودرسوا أوزان الشعر وأغاريضه وقوافيه . وهم جرا

وضعوا كل ذلك في قوانين ، ووضعوا هذه القوانين في كتب قد سطرت ، وصحف قد نشرت ، وكان كل جيل من الأجيال يزيد وينقص ، ويغير ويبدل على حسب ما يترأى له ، ويضع الكتب الجمة والأسفار المختلفة ، وكانوا يعمقون عليها يتدارسونها يعلّمها كبارهم صغارهم ، وعالمهم جاهلهم ، وقد ورثنا نحن هذه العناية فدرسناها في جميع معاهد التعليم ، فهي تدرس في وزارة المعارف ، في الأقسام الابتدائية والثانوية وفي التعليم الأولى ، وهي تدرس في المعاهد الدينية والأزهر في الأقسام الابتدائية والثانوية ، وهي تدرس في كلية اللغة العربية من كليات الأزهر ، وفي

كايتى الآداب من جامعتى فؤاد وفاروق ، وهى تدرس فى دارالعلوم ومدارس
المعلمين والمعلمات ، ونصيبها من الحصص فى هذه المعاهد نصيب الأسد
عمكفت مدارسنا على هذه القواعد التى استنبطها العلماء المتقدمون فى
النحو والصرف والبلاغة والعروض والقافية تدرسها وتضبط شوارد
العربية على المعلمين

وكانت تقسم القواعد على سنى الدراسة قسمة تراعى فيها الحكمة ،
فهى قليلة موجزة فى الأقسام الابتدائية ، وكثيرة مطولة بعض الشيء فى
الأقسام الثانوية ، وهى مطولة كل التطويل ومستوعبة كل الاستيعاب فى
المدارس العالية

إنى لأعجب كيف تحقق مدارسنا وتحقق الأجيال قبلنا فى تعليم هذه
اللغة مع هذه العناية وهذا الجهد

أينجح الحائك فى تعليم الحياكة ، والبناء فى تعليم البناء ، والنجار فى
تعليم النجارة ، وكل ذى صنعة فى الدنيا فى تعليم صناعته ، ويخيب رجل
العلم والتربية فى تعليم اللغة العربية ؟

أينجح تلاميذ الصنائع جميعاً إلا قليلاً ، ويخيب تلاميذ رجال العلم إلا
قليلاً مع أن الأولين يبذلون أقل جهد ومشقة فى تعليم الصنائع ولا يعملون
المسائل ولا يفلسفونها ، ولا يعملون شيئاً إلا أن يأخذوا المعلمين بأعمال
كثيرة من صنعتهم ويعرّونهم ويكرروا ذلك ، فإذا هم قد حذقوا الصنعة
وأجادوها ، ومع أن الآخرين يبذلون كل جهد ومشقة ، ويذكرون علل
العربية ويفلسفونها ، ويطلعون تلاميذهم على دقائقها وخفاياها

اعمل مازحاً يمزح ويقول : أن سر هذا الإخفاق في هذه العناية ، وسر

هذا النجاح في هذا الإهمال

وسنأخذ هذا المزاح جداً ، ونرى أنه يشير إلى الطريق ونضع أن سر

نجاح أولئك في طريقهم وسر خيبة هؤلاء في طريقهم

سر نجاح أولئك في المراتة والتكرار حتى يكسبوا الصنعة ، وسر خيبة

هؤلاء في الاعتماد على القواعد وترك الحفظ والمراتة والتكرار ولو أخذ كل

بطريقة الآخر لخاب الفاجح ، ونجح الخائب

لو علم الخائب تلميذه بطريق القواعد حسب ، وظل طول عمره يقول

له شد الحيط طولا واسلك فيها الخيوط عرضاً ليتكون منها سدى ولحمة ،

ولم يأخذه بأعمال الحياكة الكثيرة وتكرارها والمراتة عليها ، لخاب في

التعليم ولم يكسبه الحياكة ، ولو أخذ عالم العربية بطريق المراتة والتكرار

والحفظ ، لحفظ تلاميذه أساليب العربية البليغة ، ومثلها الرائعة مما يعتاد

في الخطاب ، وأخذهم بالنسخ على منوالها في الحديث والكتابة والخطابة

لنجاح في تعليمه

ولا عجب أن يكون هذا الصانع العاى أقرب إلى الحقيقة من هذا

العالم الربى ، لأن هذا العاى يرجع إلى الواقع ويستمل منه وهذا العالم قد

أغفل الواقع وقلد ما كان عليه الآباء والأجداد

هذا العاى يعلم أن قواعد الصنعة لا تعطى الصنعة ، ولا يعطيها إلا

تمرين المعلم ، وأخذه بنماذج كثيرة ، وتكرير ذلك حتى يتقنها

وهذا العالم أغفل هذه الحقيقة وظن أن قواعد اللغة تكسب اللغة

وأن قواعد البلاغة تكسب البلاغة فأخذ يبدأ فيها ويعيد ، ويكرر ويكرر
 من التكرار ، فأكسبهم ملكة في قواعد اللغة ، ولم يكسبهم ملكة اللغة
 سهول هذا أقواماً ويرونه سخفاً من القول ، وقياساً مع الفارق ،
 ويقولون : إنك لم تعمل شيئاً سوى أن قست قياساً فقلت تعلم وتعلم
 ولغة وصنعة ، وكما أن الصنعة لا تكسب بالقواعد إنما تكسب بالعمل
 والتكرار كذلك لا تكسب اللغة العربية بالقواعد فحسب إنما تكسب بالعمل
 والتكرار والحفظ ، والقياس لا يفيد اليقين ، فطرق العلم مختلفة ، فهذا
 يعلم من طريق ، وذاك يعلم من طريق آخر ، فالروائح تعلم بالشم ، والطبوم
 تدرك بالذوق ، والألوان تدرك بالبصر ، فكما لا يصح أن يقال : إن
 الأحمر قد كان طريق العلم به البصر فيجب أن يكون الحامض طريق العلم
 به البصر كذلك لا يصح القياس الذي ذكرته ، فلعل هناك فارقاً بين
 الصنعة واللغة يجعل أحكامهما مختلفة ، فتكون الصنعة تكسب بالتكرار ،
 وتكون اللغة تكسب بالقواعد ، فالقياس لا يجدينا ولا ينفعنا ، فلا بد
 أن تأتي بالبرهان لنصدق به ، ولا نجد عنه معدي

وإني أعد القراء أن أحجى بالبرهان على أن اللغة كسائر الصنعات
 لا تكسب بالقواعد ، إنما تكسب بالحفظ والتكرار ، وأن أدير الحديث
 على طرق إقناعية شتى حتى أفوز بإقناع أولى الأمر فنحل مشكلة من
 مشكلاتنا العديدة ، لنفرغ لمشكلات أخرى .

اللغة ملكة

والمالكة لا تكتسب بالقواعد بل بالتكرار

قوة للعلم وعينه ، ضعف الجهل وشؤمه ، استعانة الأمم الراقية بالعلم على حل مشاكلها ، عدم استعانة الأقوام الممجة به ، وجوب الاستعانة به في حل مشكلات اللغة ، ماهية اللغة ما يقتضيه التكلم بها من السرعة والأجادة ، خواص الملكات السرعة والأجادة ، أسرار الملكات في السرعة والأجادة ، حكمة الله في خلق الملكات في عباده ، الملكات لا تكتسب بالقواعد بل بالتكرار ، اللغة لا تكتسب إلا بالتكرار

في الأمثال العربية : قتل أرض جاهلها ، وقتل أرضاً عالماً ؛ ومعنى ذلك أن من سلك أرضاً وكان جاهلاً بطريقها ضل وهلك ، ومن سلك أرضاً وكان عالماً بمسالكها قطعها ونجا منها . وهذا لا يختص بالأرض والمسافر ، بل يعم كل من يزاول أمراً من الأمور ، فإن زاوله عالماً به تغلب عليه ، وإن زاوله عن جهل خاب فيه

للعلم سلطانه القاهر ، والمتسلح به متسلح بسلاح الظفر ، وللجهل
عثراته الموبقة والمتسلح به متسلح بسلاح مفلول ، إن الأمم التي تحل
مشكلاتها مستضيئة بنور العلم تفجح فيما تحاول ، وتغلب على الصعاب التي
تعتريها ، والأمم التي لا تستهدي العلم ولا تستشيريه في مشكلاتها ، لا تكاد
تحل لها مشكلة

وما الفرق بين الأمم المتحضرة والأقوام المميج ، إلا أن الأولى آمنت بالعلم وبسيطرته على الوجود ، فسعت للكشف والمعرفة ، وكلما علمت شيئاً استفادت منه في حياتها ، وأن الثانية لا تؤمن هذا الإيمان بالعلم . ولا تعترف له بهذه القدرة ، فهي تحل مشاكلاً بما يأتيها به عفو الخاطر ، فتعثر دائماً ويلج بها العثار

وخير علاج ما يكون مبنيّاً على طبائع الأشياء فأول ما يبدأ به معرفة طبيعة الشيء . ثم يعالج على حسب هذه الطبيعة وبنور هذه المعرفة وعلى هذا نخير ما يعمل لحل مشكلة اللغة العربية أن تعرف طبيعتها ومن أي جنس هي ! وما خصائص هذا الجنس ! وقد أدركت ذلك واقنعت به ، وزيد أن تقنع به القراء

قضيتان إن آمنت بهما سلمت معنا بما زيد : إحداهما أن اللغة في المتكلمين بها ملكة . ثانيتهما أن الملكة لا تكتسب إلا بالتكرار لا بالقواعد فحسب

إذا استطعت أن أقيم الدليل على هاتين القضيتين ، وصدقتم بهما ، وجب أن تصدقوا أن اللغة لا تكتسب بالقواعد فحسب ، بل بالتكرار والحفظ والمحادثة ، وسأحاول ذلك فيما يأتي :

اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . والتعبير باللغة والقهم عنها يقتضى أمرين :

١ - السرعة ؛ فكما خطر يبال المتكلم معنى خطر اللفظ الدال على مفرداته

وخطر التركيب الدال عليه في وحاء ، وكلما سمع جملة فهم معاني ألفاظها وما يدل عليه التركيب

٢ — الإجادة ؛ وذلك بأن يكون جارياً على قوانين هذه اللغة لا يخطئ فيها ، وذلك لا يكفي فيه أن تكون اللغة معلومة فحسب ، بل لابد أن تكون ملكة ، أي حالة راسخة في النفس ، لأنها إذا كانت معلومة علماً ساذجاً ولم تصر ملكة ، وأراد المتكلم التعبير عن معنى ، فكرر وروى في اللفظ الذي يدل على ذلك المعنى ، واستعرض الألفاظ المخزونة في حافظته حتى يعثر به ، ثم فكر فيما يعلمه من تراكيب هذه اللغة ليختار التركيب الذي يفيد ذلك المعنى ، ووضع اللفظ في هذا التركيب . وأعطاه الأحوال المناسبة ، وذلك يقتضى جهداً وزمناً ، وربما ينقضى بياض النهار وسواد الليل في تعبيرين أو ثلاثة ، مادامت اللغة علماً ساذجاً . أما إذا عمقت إلى أن صارت ملكة ، فانه إذا أراد التعبير عن معنى انثالت عليه الألفاظ ، وانثالت عليه التراكيب دون جهد ومشقة ، سريعاً لا يبطئ ، مصيباً لا يخطئ .

وقياس ذلك قياس العامل الذي يصف الحروف للطبيع ، فانه إذا كان مبتدئاً واقتصر على العلم بأمكنة الحروف ، وأراد بعد هذا العلم الساذج أن يصف حروف كلمة اقتضاء ذلك من التفكير والجهد والزمن ما ليس بالقليل وربما انقضى اليوم ولم يصف إلا بضع كلمات

أما إذا تجاوز ذلك إلى أن صار ملكة ، فانك ترى يده تلتقط الحروف

من هنا ومن هنا ، وفكره يسبق يده ، ويده تسبق فكره حتى يصف في
الدقيقة عدة كلمات

وهذا شأن الملكات كلها تأتي بالشيء في عجلة وإتقان ، وترك
المعجب العجيب ، ترى الأمر الذي له أجزاء كثيرة ويحتاج إلى فكر في
هذه الأجزاء يأتي به صاحب الملكة دون فكر كأنما هو ساحر يأتي بالخوارق
رأى صديق أمي ، كان قد بدأ في تعلم القراءة والكتابة أقرأ ، فهالته
السرعة والإصابة ، فقال أظنني أصدقك في أنك تقرأ من هذا الكتاب ؟
لا ، إنك تقرأ من حفظك . أجنون أنا حتى أصدق أنك تقرأ مالا تحفظ ؟
أفي هذه السرعة تعلم ما هذا الحرف وما الذي يليه وهكذا وتعلم حالاته
ألفتح أم مضموم أم مكسور أم ساكن ، وإن تركيب ذلك يكون كذا ؟
وهبك عرفت هذه الكلمة فكيف تعرف صاحبها بهذه السرعة ، وكيف
تجمع من الحروف كلمات ومن الكلمات جملا ، منطلقا كالسهم ، مصيبا
كالقضاء ؟

وهذا تفكير سليم لو أغفلنا من حسابنا أمر الملكات ، ولكن الملكات
كائنات من كائنات هذا الوجود ، ولها هذا العمل الغريب ، والسحر
العجيب . أن النجار الذي يكتب ملكة النجارة يأتي بأعمال أشد
إتقانا وأسرع ممن لم يكتب ملكة النجارة . إنه يدق المسمار بالقدم مائة
مرة ، فلا تخيب منها مرة ، حتى أن صاحبه ليمسك له المسمار وهو يدق
آمنا أن تفلت منه ضربة فتصيب يده ، ومن لم تكن عنده ملكة النجارة
يدق مائة مرة فلا تصيب رأس المسمار منها واحدة

وإن المرء ليعجب للحائك كيف يسلك الخيوط في الخيوط المشدودة
بحركة سريعة وإتقان عجيب لا يدخل الخيط في غير موضعه المراد له . ولا
يمقد ولا يقطع . وإن الملكة لتدخل في أغلب أعمالنا فتجعلها أعظم إتقاناً
وأسرع وتجعلنا نأتي من الأعمال ما نحتاج إلى آلاف السنين لنعمله لو لم
تكن عندنا هذه الملكات ، فبالملكة نكتب ونقرأ ونتكلم ونحسب ^{الملك}
ونعمل في الصناعات المختلفة من حياكة وخياطة ونجارة وحدادة وطباعة مع
الإسراع والإجادة والإحسان

ولولا الملكات لما قمنا بهذه الأعمال وسواها إلا مع الخرق والإبطاء
كما أريناك في صفاف الحروف الذي لم يكتسب ملكة في صنعته . وإن
الزمان لأسرع من أن ينتظرنا ، وحاج الحياة شديدة الأحاج تتطلب السرعة
والإجادة ، وإن قوة المرء محدودة لا تفي للعمل بدون ملكة لأن ما كان
من الأعمال كذلك يقتضى من المرء جهداً ومشقة وتفكيراً تستنفد من
قوته ومن دمه وأعصابه ما هو بحاجة إليه

وإنها الحكمة من الله عظيمة أن يخلق فينا الملكات فتجعلنا نجيب
مطالب الحياة المتعددة بأقل ما يكون من الزمن ، وأيسر ما يكون من الجهد
وأسرع ما يكون من الفعل ، لاسيما حاجة التخاطب . فالله أرحم بعباده
من أن يقف التخاطب على هذه الجهود المضنية ، والمتاعب الشاقة .
والتخاطب عمل دائم ، لا تنقضى منه حاجة حتى تتجدد حاج ، ولا يفرغ
المرء من خطاب حتى يستأنف خطاباً آخر ، ولا يفرغ من فهم خطاب
إلا إلى فهم مخاطبات أخرى وهم جرا ...

لقد قلنا الآن ما يمكن قوله في أن اللغات في الناس ملكات يقتدرون
 بها على الإفهام والفهم ، وأظن أن القراء آمنوا بذلك لما أوردته من الأدلة
 وقد بقي أن أقول في القضية الأخرى وهي أن الملكة لا تكتسب
 بقواعد وإنما تكتسب بالمزاولة والتكرار

إذا استقرت الملكات ولاحظت كيف تتكون علمت أن الملكة
 لا تكتسب إلا بالدأب والمراثة وتكرار العمل لا بالقوانين والعلم المجرد .
 لاحظ صناعة صف حروف الطباعة تجد أن العامل إنما يكتسبها بمزاولة
 صف الحروف والتقاط الحرف من مكانه المخصص له وتكرار ذلك حتى
 تكتسب الملكة ، وليس يكسبها بالعلم المجرد بأن من أراد صف كلمة
 فليأخذ حروفها المتعددة من أما كتبها المخصصة لها وهكذا فإذا أتم صفحة
 وضعها بين ضاغطين ليمنعها من الشتات والانفراط

لاحظ صناعة الموسيقى تجد أنها لا تكتسب بقوانينها الفنية فحسب ، فلا
 تكتسب بقول الأستاذ : اضرب بالخنصر والبنصر والسبابة وشدا الأوتار ؛
 إنه بذلك لا يكون عازفاً ولا موسيقياً وإنما يكون موسيقياً إذا زاول هذا
 الضرب صراراً وتكراراً ، فأكسب أصابعه المرونة والسرعة والاستجابة
 لما رسمه في وحاء ، ثم أكسب نفسه وذوقه بذلك الملكة في الموسيقى
 وفنها الجميل

ولو مكثت طول عمرك تقول لمتعلم الحياكة شد الخيوط طولاً وأدخل
 فيها الخيوط عرضاً ذاهباً بمنة وذاهباً يسرة لما تعلم بذلك شيئاً من الحياكة
 وإنما يتعلمها بمزاولة هذه الأعمال حتى تكتسب يده الخفة والمراثة

ولو رددت على متعلم السباحة قولك : اركض برجلك اليمنى في الماء واضرب بذراعيك ، لما تعلم بذلك السباحة ، ولو سبح معتمداً على هذه القواعد لأدركه الغرق ولذهب ضخمة القواعد والقوانين

الآن علمنا أن اللغة في المتكلمين ملكة ، وعلمنا أن الملكة لا تكتسب بالقواعد ، إنما تكتسب بالمرانة والتكرار ، فيلزمنا - شئنا أو أبينا - الإقرار بأن اللغة لا تكتسب بالقواعد . إنما تكتسب بالحفظ والتكرار وهو المطلوب الذي حاولنا إثباته

أرأيتم أننى كنت مصيباً حين قلت يجب أن نحل مشا كلنا بالعلم ، ويجب أن نعرف طبيعة الشيء وخصائصه لنبنى الحل على هذه الطبيعة ؟
أرأيتم كيف كنا نعلم اللغة على غير طبيعتها ، أرأيتم كيف كنا نمثل دوراً مخجلاً ، فكنا كمن يطرق الحديد وهو بارد فيشقى ثم يشقى والحديد لا ينطرق معه ولا يلين ، فيهزأ منه من يراه ، ويضحك ملء شذقيه ، ويرى كيف يشقى الجهل بطباع الأشياء صاحبه ، ثم لا يحظى بطائل ولا كبير فائدة .
أكثرنا من المطالعة في كتب الأدب . احفظوا الكثير من أشعار العرب . احفظوا ما تقدرُونَ عليه من الخطب . ارووا الأمثال السائرة ، والنوادر الباعرة ، والرسائل البليغة . والمحاورات العذبة . اخلقوا في بيئتكم المدرسية جواً عربياً لا تتحاورون فيه إلا بالعربية ، فإن لم يكن ذلك في جميع الدروس ففي دروس اللغة العربية

لتقوموا بروايات تمثيلية تحفظون أدوارها ، وتستظهرون محاوراتها ؟
وليمثل كل منكم دوره باللهجة العربية والتوقيع الخطابي

لا تكتفوا في العام الدرامي بحفظ مقطوعة أو مقطوعتين ، ولا برسالة
 أو رسالتين ، بل فلتسوا دواوين الأدب واختاروا واخفظوا وأسرفوا في الحفظ
 وطلعوا وأسرفوا في المطالعة ، واكتبوا الرسائل . وجربوا المقالات على
 غلط ما يحفظون وغرار ما تألفون
 بذلك وبذلك وحده يحوزون ملكة اللغة ، وتلكون زمام البيان

أسلوب الفطرة في تعليم اللغات

المرونة والتكرار

كيف تعلم الفطرة اللغات ، موازنة بين أسلوب الفطرة في تعليم اللغات وأسلوب مدارسنا ، وجوب محاكاة الفطرة في أسلوبها — ما في المدارس من المطالعة والمحفوظات قليل لا يجدي — عدم عناية المعلمين والممتحنين بحفظ الشواهد والمثل — كل ما في الوجود يشهد للأسلوب الذي اقترعناه — أمثلة لذلك .

ومن غريب الأمر أن الطريق الذي أشرنا بسلوكة ، والذي أبان العلم أنه لا طريق إلى تعلم اللغات سواه ، هو الطريق الذي هدت إليه الفطرة وسلكته في تعليم الولدان لغات آبائهم ، وتعليم الأجيال لغة أمهم ، فالفطرة اصطفت في تعليم اللغات طريق الحفظ والتكرار ، والمرونة والاعتقاد .

ينشأ الطفل فيسمع أبويه وأهليه يتكلمون بمواضع خاصة فيحفظها وتكرر على سمعه ، ويعتادها لسانه فتصير ملكة ، وبذلك يحذف لغة قومه . كأن الفطرة قد علمت أن اللغة في الإنسان ملكة ، والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار ، فاستعملت ذلك في تعليم أمم الأرض لغاتها ، ولم تخطيء

مرة واحدة فتلجأ إلى طريق القواعد والقوانين لأنها لا تكسب المكات .
 * أما نحن فجهلنا ذلك ، وأخذنا نعلم اللغة بالقواعد والقوانين ، ولم نلجأ
 إلى تعليمها بالحفظ والتكرار ، فكانت الفطرة أقرب إلى الصواب ، وأبعد
 عن الخطأ ، وأثقب فكراً ، وأسد نظراً ، وكنا أقرب إلى الخطأ ، وأبعد
 عن الصواب ، وأعظم خرقاً . وكانت الفطرة تعلم اللغة أثناء المعاملات
 اليومية من لعب وقضاء حاج ، وبيع وشراء ؛ أما نحن فقد أحطناها
 بالقوانين التي يفنى العمر ولا تفنى ؛ فكانت مقصدية أعظم الاقتصاد ،
 وكنا مسرفين أشد الإسراف . كانت الفطرة تعلمها بالتدرج من الأسهل
 إلى الأصعب ، ومن البسيط إلى المركب ، مراعية حال المتعلم ، فتعطيها
 ما يناسبه ولا يجافي عقله . أما نحن فلم نزاع ذلك بل تعمداً مضادة ،
 فعلمنا القواعد التي هي فلسفة اللغة ، تعلم بعد تعلمها ، ومرتبها في الوجود
 متأخرة عنها ، فلم تظهر إلا بعد ظهور اللغة بأزمان . أقول علمنا القواعد
 قبل تعلم اللغة وجعلناها وسيلة إلى تعلمها ، ولم نزاع حال المتعلم فجئنا بأطفال
 الأقسام الابتدائية والتعليم الأولى ، وأخذنا نعلمهم القواعد ، ونعطيهم من
 العلم ما ينبو عن أذهانهم ؛ فكانت جارية على مقتضى الحكمة ، وكنا
 جارين على غير مقتضاها ، أو على مقتضى شيء آخر ، وكانت ميسرة كل
 التيسير ، وكنا معسرين كل التعسير .

وكانت تعلمها أثناء سرد الحوادث اليومية ، وأخبار الجيران ، والأهل
 والخلان ، والمحادثات السارة والأخبار الممتعة ، وتاريخ الناس وملحهم ،
 وفي أثناء الأغاني والمدائح والرائي . وكنا نعلمها في قواعد جافة خالية من

كل ذلك ، فكانت تعلمها مع المتعة والمسرّة . وكنا نعلمها مع الضيق والحرج . ولما راعت ذلك كله كانت ناجحة في تعليمها كل النجاح ، ولما أهملنا ذلك كله كنا مخفقين كل الإخفاق .

أراني فيما سبق قد أطلت المسافة في الاستدلال ، وذكرت في البين أن اللغة ملكة ، وأن الملكة لا تكتسب إلا بالتكرار ، وكنت أستطيع أن أختصر الطريق ، وأقول لننظر إلى الفطرة كيف تعلم اللغة ، ولنحكما فيما تفعل ، ولنعمل كما تعمل .

وإذا نظرنا هذا النظر وجدناها تعلم أبنائنا اللغة العامية بالتكرار والمحادثة ، وكذلك كانت تعلم أطفال العرب لغة آبائهم . كانوا يسمعون في طفولتهم من آبائهم ومخالطيهم مفردات اللغة وأساليبها ، والبليغ المأثور من بيانها ، ويتكرر ذلك على أسماعهم ، فيحاكونه ويقلدونه ويتكلمون على نهجه ، فيكتسبون الملكة في اللغة بالسمع والتكرار والحفظ ؛ فإذا الطفل الناشئ ، ولسانه البادئ جار على هذه اللغة لا يخطئ ولا يشد ، ولو حاول جهده أن يحيد عن الصواب لاستمصى ذلك على لسانه ، ولو وجد في ذلك مشقة وعنتا .

إن محاكاة الفطرة في أعمالها داعية إلى النجاح والتوفيق ، وكلما كان المرء أقرب إليها كان أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الخطأ ، ويكون خطؤه بقدر بعده عنها ، ومجاافته لقوانينها .

ومن سوء حظ المعلمين أن ما في المدارس المصرية مما له تعلق بالطريقة الطبيعية قد أهمل ولم يعم به ، وهو فيها صورة لا معنى ، وشكل لا حقيقة ؛

ففي المدارس المصرية : حفظ ومطالعة ، ولكن التلاميذ يهتمون ذلك التمدد القليل الذي فرضته عليهم المدارس المصرية من المحفوظات ، ولا يحفظون إلا الزر القليل ليقولوه أمام لجنة الامتحان الشفوي ؛ وفيها مطالعة ، ولكن يمر العام كله وهم لم يطالعوا إلا صفحات معدودة . وفي الكتب المقررة شواهد على النحو والصرف والبلاغة ، ولكن التلاميذ لا يحفظون شاهداً ، ولا يستظهرون مثلاً .

وضعت يدي على خمسة تلاميذ اتفاقاً دون اختيار ، وكانوا من تلاميذ الثقافة ، وكان علم البيان مقرراً عليهم وفيه كثير من الأمثلة والشواهد ، وسألهم واحداً واحداً عما حفظوه من شواهد البيان ، فلم يكن منهم من يحفظ بيتاً واحداً ، ومن المحزن أن المتحنيين لا يقيمون وزناً لذلك ، وأن المدرسين لا يقيمون له وزناً أيضاً ، فلا هؤلاء يحتمون عليهم حفظ الشواهد ، ولا أولئك يرون المقصر في حفظها مقصراً في الامتحان .

وهذا إهمال عظيم في الحفظ والتكرار ، وهو وإن كان محزناً فإن لهم العذر كل العذر فيه ، لأنه ثبت في أذهان الجميع معلمين ومتعلمين أن المعول عليه إنما هو القاعدة ، فإذا فهمت وحفظت فما عداها من حفظ الشاهد والمثل فضل ، ولا يعلمون أن هذا الفضل هو الذي إذا عني بحفظه وتكراره رسم صورة ذهنية ، يكتب الناشئ على مثالها ، وينسج على منوالها .

وقد علمتني التجربة أن ما يؤخذ من المحفوظات في المدارس لا يغني التلاميذ شيئاً ، فمن الواجب أن يكاف التلاميذ أن يعكفوا على بعض دواوين الأدب ، فيقرؤوها ، ويختاروا منها ، ويجمعوا ما يختارون في

practice

كراسة ويحفظوه ويفهموا معناه ، وتكون هذه الكراسة بيد التلميذ عند الامتحان شاهدة على جده وعمله ، فيقدمها للممتحن فيرى أهى كافية أم غير كافية ، ثم يمتحنه فيها من أولها ومن وسطها ومن آخرها ليعلم هل حفظ ما اختار .

وقد علمتني التجربة أيضاً أن ما يؤخذ من المطالعة في العام الدراسي أمام المدرس لا يغني التلاميذ شيئاً ، فمن الواجب أن يكلفوا بكتب يطالعونها أثناء العام الدراسي ويكتبون آراءهم فيها ويلخصون محتوياتها ، وكذلك في العطلة ، ويكون لهذا وذلك دخل في تقدير الدرجات .

كل ما في الوجود يشهد لي أن اللغة إنما تكتسب بالحفظ والتكرار وأن القواعد لا تغني في اكتساب ملكة اللغة فتيلاً .

أملك جلست إلى بعض الممثلين واستمعت إلى حديثه فرأيتهم يتكلم بالعربية لا يكاد يخطيء : وينحدر كالسيل ، ويهدر كالرعد .

وأملك جلست إلى بطل من أبطال اللغة العربية يعرف قواعد النحو والصرف والبلاغة لا تكاد تحفي عليه منها خافية ، فرأيتهم يتكلم بالعامية لا يكاد يقيم جملة ، ولا يستطيع أن يلين لسانه بالعربية ، فعجبت كيف يملك الأول هذا القدر من العربية مع جهله ، وكيف يقصر عنه الثاني مع علمه .

أتدري لم هذا ؟ إن الأول زاول اللغة العربية عملاً ، وحفظ أدواره في الروايات ، وألقاها وضمن على ذلك فاكسب ملكتها ، فإذا تكلم صدر عن الملكة فأجاد ؛ أما الثاني فعلم قواعد النحو والصرف

والبلاغة ، ولم يزاول اللغة حفظاً وعملاً ، فلم يكتسب ملكتها فكان هذا
القصور المغيب .

أجلست مع بعض العامة الذين يكثر من قراءة الجرائد والروايات
فرايته يقيم لسانه بالعربية أكثر من ذلك النحوى الذى جعل همه فى
القواعد والقوانين ؟

ولعلك رأيت بعض من لا يعرفون علم المروض والقافية ، ولا يعرفون
البحور وأوزانها ، ولا الخجن والطنى ، إذا سمع بيتاً مكسوراً أدرك عييه
بمجرد سماعه ، وإذا سمع بيتاً صحيحاً أدرك صحته كذلك ؛ ولعلك رأيت
بعض من يعرفون هذه العلوم لا يهتمون لمعيب البيت أو صحته إلا إذا
أخذوا يتعرفون من أى بحر هو ويجرونه على أوزانه . إن ذلك لأن الأول
تربى عنده مقياس ذهنى لأوزان الشعر من كثرة قراءته وحفظه ، فإذا سمع
شعراً اختل من هذه المقاييس أدرك ذلك بدوقه ، والآخر لم ترب عنده
هذه المقاييس بل شغل بقواعد الشعر عن حفظه وقراءته والقواعد لا تربى
الملكة .

إن كثيراً من علماء المروض لو حاولوا نظم بيت من الشعر أعجزهم ؛
وإن كثيراً ممن لا يعرفون هذا العلم يأتى لهم الشعر طيماً منقاداً — والسر
ما قلناه وكرناه من أمر الملكة والتكرار .

سلوا كل كاتب يحوك الوشى ، وينفت السحر ، وكل شاعر يقول
الشعر ، وينظم الدر ، فى مصر وفى بلاد الشرق ، بماذا نلت هذه المنزلة
ووصلتم إلى هذه الدرجة من البيان ، يجيبوك بأنهم لم يغالوا هذه المنزلة

ملا ٢٥
إلا بالقراءة الكثيرة ، والحفظ الكثير ومزاولة الكتابة والحديث .
 إن قوانين الوجود صارمة نافذة أبدية . فمن سايرها وعمسل على
 مقتضاها انتفع بها وسار على ضوئها إلى التوفيق ، ومن جهلها لحقه الضرر
 بهذا الجهل ، ومن أراد التخلص منها ، وحاول أن يخضعها لإرادته عنى
 نفسه فيما لا يطاوعه ولا يجد إليه سبيلاً .

هل العربية للعرب بالطبيعة

سر اخفاق مدارسنا

في تعليم اللغات الأجنبية

[هل العربية للعرب بالطبيعة - ابطال ذلك - ليس في استطاعتنا ان نكون البيئة العربية ولكن في استطاعتنا ان نقارب - تحميل المتعلمين اخطاءنا - وجوب تجربة اسلوب المراقبة والتكرار بعد الاخفاق في اسلوب القواعد - تعدى شؤون اسلوب القواعد الى تعليم اللغات الأجنبية - عدم استفادتنا من مدارس الجاليات بين ظهرانينا - تبعة ذلك]

لقد هال بعض علماء العربية ما يرونه من تعلم ولدان الأعراب لغتهم بالطريقة الطبيعية إذ يخرجون يتكلمون بها لا يخطئون، ويمربون فلا يلحنون، ووازنو بين هؤلاء الولدان وبين تلاميذهم الذين يعلمونهم على طريقة القواعد والقوانين، فأروا البون شاسعاً، والفرق واضحاً: هذا يصيب ولا يخطئ، وهذا يخطئ ولا يكاد يصيب، إذا أخذ الأول بالخطأ لم يطاوعه لسانه، وتعذر عليه الخطأ كما يتعذر على الآخر الصواب. رأوا هذه المشاهدة، ووازنوا هذه الموازنة، فذهبوا إلى أن اللغة العربية للعرب ولا بتأهم بالطبيعة والفطرة، ولغيرهم بالتعليم، وشتان بين ما هو بالطبيعة

وما هو بالتعليم والتكلف ؛ ولن يبلغ المتكلف وإن بلغ الغاية شأو الطبي
القطري .

وهذا المذهب غير صحيح وإن كان أصحابه معذورين في الذهاب إليه .
أما العذر فلا أنهم يفتنون أعمارهم في درس اللغة العربية وقوانينها
وعلمها وأسبابها ، يبذلون طاقتهم ثم لا يجدونهم قد بلغوا ما يبلغه ذلك الغلام
الذي ينشأ في البادية من إجادة اللغة وامتلاك ناصية الشعر والنثر .

وأما أن هذا المذهب خطأ فيدل عليه أنه لو كانت اللغة العربية طبيعية
في العرب لما تخلفت ، لأن ما بالطبيعة والذات لا يتخلف . ونحن نحكم
بالتخلف ، فلو أخذت صبياناً من أبناء العرب وربيته في فارس أو الروم
لخرجوا يتكلمون الفارسية أو الرومية ، ولم يحسنوا شيئاً من العربية ؛ وإذن
فليست اللغة العربية في العرب وأبنائها طبيعية وليست فيهم لذاتهم ، ولو
أخذت صبياناً من أبناء فارس وربيته في بادية العرب لخرجوا يتكلمون
العربية ولم يعرفوا شيئاً من لغة فارس والروم . فالصحيح من القول إذن
أن اللغة العربية في العرب وغيرهم بالتعلم والاكتساب ؛ إلا أن الطرفين
مختلفان ، فالعرب يتعلمونها بالحفظ والاختلاط وتربية الملكة ، والنحاة
يتعلمونها بالقواعد والقوانين ، ويهملون تربية الملكة ، فتكون الطريقة
الأولى أجدى وأنفع ، وتكون الطريقة الثانية أخيب وأقل جدوى .

ونحن ليس في استطاعتنا أن نكون البيئة العربية فنأى بالطريقة
الفطرية ، ولكن في استطاعتنا أن نقارب ، وأن نقلد الطريقة الفطرية ،
فنحسن التقليد ، ونكثر من الحفظ ، ونعمل على تكوين ملكة اللغة
بالمادة والدربة والتكرار

أيجمل رجال التعليم أن يخطئوا في تعليم الولدان اللغة العربية فيعملوا بالقواعد مالا يعلم إلا بالتكرار والحفظ ثم يطالبونهم بكتابة مواضع تكون جارية على أساليب اللغة ، خالية من اللحن والغلط ، فإن لم يستجيبوا لهم لا موم ونسبوا إليهم المعجز والمتقصير ؟

كيف يكتبون كتابة جارية على أساليب العربية ولم تتكون في أذهانهم مقاييس ونماذج عربية يكتبون على مثالها ؟ وكيف يتكلمون كلاماً جاريّاً على أساليب اللغة ولم تتكون في أذهانهم صور ذهنية تدعوهم للتكلم على منهاجها ؟ وكيف نطالبهم بالسرعة والجودة في الكلام وتوفير الزمن والجهد وهم لم يكتسبوا ملكة اللغة التي بها يكون ذلك ؟

الحق أنكم تستنبطون الماء من الحجر ، وتطلبون في الماء جذوة نار . الحق أنكم تأتون الأمر من غير باب ، وتلجمون الفرس من الخلف . الحق أنكم إذ تلومون التلاميذ على خيبتهم في اللغة تلومون غير ملومين ، وتأخذونهم بذنب أنتم علمه ، وبجريرة أنتم أسبابها . ولو أنصقتم لهم الطريقة التي علمتموهم عليها ، أو بالحرى لرجعتم باللوم على أنفسكم

يا قوم قد جربتم طريقة القواعد في تعلم اللغة العربية ألف مرة ، وفي كل مرة تحفقون ، وجربتها الأجيال قبلكم كذلك ، جربوا مرة واحدة طريق الحفظ والتكرار ، وأنا كفيل لكم أن تحمدوا هذه التجربة ، وألا تعدلوا بها غيرها ، ولو بذل لكم ما يستطاع للعدول عنها إلى طريقةكم الأولى لم تفعلوا ، لأنكم قد وجدتم في هذه الطريقة النجاح حين وجدتم في الأولى الإخفاق

ونحن نعلم في مدارسنا المصرية اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ، كما تعلمها مدارس الجاليات الأجنبية ، ولكن الشركات والبنوك والمحلات التجارية التي تصطف هاتين اللغتين في الكتابة والخطابة تفضل أن تستخدم من تخرج في المدارس الأجنبية على أن تستخدم من تخرج في المدارس المصرية ، لأن الأول يجيد اللغتين كتابة وحديثاً ، والثاني أبانت التجربة أنه لا يجيدها كأخيه . أندرون لم ذلك ؟ إن شؤم طريقة تعليم اللغة بالقواعد قد تعدى إلى هاتين اللغتين ، فمدارسنا المصرية تعلمهما على طريقة حفظ القواعد ، أما المدارس الأجنبية فتعلمهما على الطريق الطبقي طريق الحفظ والتكرار والمحادثة حتى تثبتهما ملكتين راسختين في النفس فيجيد تلاميذهما الكتابة والحديث بهما ، ومن أين لتلاميذ المدارس المصرية أن يجيدوها وهم إنما عرفوا القواعد ولم يجملوها ملكتين بالحديث والتكرار ؟ ومن ذلك تعلم أن هذا الإخفاق لا يرجع إلى قصور في عقول التلاميذ المصريين ولا إلى كسل يستولى عليهم ، وإنما يرجع إلى هذا الأسلوب العقيم . وهذا هو السر أيضاً في كثرة التلاميذ الذين يرسبون في هاتين اللغتين ، فنحن الذين يجنون عليهم ، ثم نحملهم جريرة عملنا ، ونأخذهم بذنوبنا

سمعت أحد أبناءى يردد صيغاً من اللغة الإنكليزية ويقول هذا المذكر وهذا المؤنث وهذا للجمع

فقلت له : ماذا تفعل ؟ قال : أحفظ درس القواعد . قلت له : ماهذا يكون ، ينبغي أن تأني بجمل تامة من اللغة الإنجليزية في مخاطبة المذكر

ومخاطبة المؤنث والجمع ، وتفهم معناها وتكررها وتحفظها ، وتتحدث بها حتى تكون ملكة ، ثم تأخذ القاعدة منها إن شئت . هذا هو الأسلوب الفطري في تعلم اللغة ؛ أما أن تأخذ اللغة من القاعدة فهذا ليس طريقاً طبيعياً . لقد كان يمجزنا ونحن تلاميذ أن نحفظ قواعد اللغة العربية ، فكنا نستمع عليها باستنتاجها مما نحفظ ومما رسخ في أذهاننا ، وصار ملكة فينا . مثلاً : إذا كنا لا ندري ما عمل كان وأخواتها ، وما عمل إن وأخواتها ، رجعنا إلى ما رسخ في نفوسنا ، واستشرنا ملكاتنا ونطقنا بأمثلة نحفظها ، فيها كان وإن ، ونرى كيف تنطق بها ألسنتنا ، كقوله تعالى : « كان الله غفوراً رحيماً » ، « وإن الله على كل شيء قدير » . ونستنبط من ذلك أن كان ترفع الاسم وتنصب الخبر ، وأن إن تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهذا تقريب لما أريد أن يكون في تعليم اللغات . أريد أن تثبت الأساليب والألفاظ بالحفظ والتكرار حتى تكون ملكة ، ثم تستنتج منها القواعد ، ولا أريد أن تحفظ القواعد لتعلم منها الأمثلة ، فإن ذلك لا يجعلها ملكة إلا أن يلجأ إلى الحفظ والتكرار

ومن العجب أن تمكث هذه المدارس بين ظهرانيها هذا الدهر الطويل ونرى أسلوبها الناجح في تعليم اللغات ، ونلمس نجاحه ولا نقبض منها هذا الأسلوب !

أرى قوم طائفة تعمل عملاً قتنجج ، ويعملون هم هذا العمل فيخييون ، ولا تدعوهم أنفسهم لترك أسلوبهم واقتباس أسلوب الناجحين ؟ وأعجب من هذا أن ترى هذه المدارس أسلوبنا الخائب . وتلمس خيبته فلا

تنصحننا ولا ترشدنا إلى الطريق القويم في تعليم اللغات
أيستطيع أحد أن يرى ضالا يمشى على غير الجادة تنكبه الأخطار
وترديه الحفر ، ولا يقيمه على الجادة ؟

لست أدري أأرجع باللائمة علينا لعدم استفادتنا منهم ، أم أرجع
باللائمة عليهم لعدم إرشادنا ؟ ولكن يظهر أن بين الجماعات منافسة كما بين
الأفراد ، فلا ترى جماعة ضالة وتهديها السبيل . فإن كان ذلك كذلك فقد
أغناكم الله عن أجنبي يضن عليكم بالنصيحة . وماكم النصيحة من رجل
من أنفسكم يحب لكم يود خيركم ، ويحرص على نفعكم ، ويعز عليه أن
تضيع جهودكم ، وأن تبدد أعماركم . وهو ناصح أمين ؛ فهل أنتم
منتصحوون ؟

ما في الملكات

من اسرار عجيبه

استغلال الأسلوب الجديد في تعليم اللغات بأجمعها — بركته على التلاميذ وعلى أهلهم — امكان استغلاله في مشكلاتنا الأخلاقية والاجتماعية — قوة العلم — الظن بأن الملكة لا تستطيع الاهتداء إلى التفاصيل الكثيرة — إقامة الدليل على إبطال ذلك — زعم ابن جني أن العرب كانت تعرف قواعد النحو والصرف — الرد عليه في ذلك — الاطمئنان إلى الملكات — بيان أن طريقةتنا تحمل علوم العربية فوق العلم بها ملكات — انتصار العامة على العربية بظفرها بأن كانت ملكة — اخفاق القرون لم يعرفنا عن الطريقة القديمة .

لقد استغلنا ما استنبطناه من علم يتعلق بتعليم اللغة في تعليم اللغة العربية ، وفي تعليم اللغة الإنكليزية ، وفي تعليم اللغة الفرنسية ، وأصبح في استطاعتنا أن نتق الإخفاق في تعليم اللغة الإنكليزية والفرنسية ، وأن نتق هذا الرسوب الذي يعني به تلاميذنا في آخر كل عام دراسي في هاتين اللغتين والذي يبلغ في بعض السنين ٧٨ ٪ ، ووهبنا للتلاميذ أعماراً بقدر الأعوام التي وقيناهم فيها الرسوب ، والتي كانوا يرسبون فيها لولا أخذهم

بهذا المنهج الجديد ، ونفينا عنهم وعن أهلهم ذلك الحزن الذي كان يستولى عليهم في آخر كل عام دراسي بهذا الرسوب . ووفرنّا على أهلهم تلك الأموال التي كانوا ينفقونها في إعادة الأعوام التي رسبوا فيها . ومن ذلك يعلم أن الباب الواحد من العلم إذا استغله أهله كان عظيم البركة جليل النفع ، وربما كان أجدى على الأمة والأفراد من كثير من الخيرات المادية .

ولسنا نستغل هذا الباب من العلم في تعليم اللغات فحسب ، بل سنستغله في كثير من مشكلاتنا الأخلاقية والاجتماعية والسياسية ، فيرى كيف يعظم نفعه ، وتحل بركته ، وكيف يجلب من الخير ما لا يدركه الوهم ، ولا يحصيه العد .

وهذا وأمثاله هو الذي جعلني أؤمن بالعلم وأعظمه وأجمله ، وأرى أنه ما من خير للأفراد والأمم إلا وهو مصدره ، وما من شر يصيب الأفراد والأمم إلا وللجهل يد فيه ظهرت أو خفيت .

لعل قائلًا يقول : إنك آمنت بالملكة في كسب اللغة العربية إيمانًا لا تزغزه الشكوك ، وظننت أنها تفيد في كسب العربية كما تفيد في كسب اللغة الإنجليزية والفرنسية ، ولم تفتن إلى ما بين اللغة العربية وسائر اللغات من فارق .

إن اللغة العربية كثيرة الأحكام ، متشعبة الفروع ، فلا تستقل الملكة بضبط هذه الأحكام الكثيرة ، ولا يضبطها إلا العلم المفصل بالقواعد

والتقوانين ، وسأضرب مثلاً (لا) العاملة عمل إن ، فإن شرط عملها هذا العمل :

- ١ - أن تكون نافية
 - ٢ - وأن يكون النفي الجنس
 - ٣ - أن يكون نفيه نصاً
 - ٤ - ألا يدخل عليها جار
 - ٥ - أن لا يكون اسمها نكرة
 - ٦ - أن يكون مقصلاً بها
 - ٧ - أن يكون خبرها نكرة - فإن كانت غير نافية رفع ما بعدها ، وإن كانت لنفي الوحدة عملت عمل ليس نحو لا رجل قائماً بل رجلان ، وإن دخل عليها الخافض خفض ما بعدها نحو جئت بلا زاد ، وإن كان الاسم معرفة أو منفصلاً عنها أهملت نحو لا الدار دار ولا الجيران جيران ، ونحو لا فيها غول ولا هم عنها يزفون .
- هذه أحكام كثيرة ولا يسعف بها إلا معرفة القواعد ، فأما الملكة فلا تستطيع الاهتداء إلى هذه التفاصيل .

ومحن نقول لهذا القائل إنك أسأت الظن إذ ظننت أن الملكة لا تهتدى إلى الفروق الخفية والمداخل المتشعبة ، إنها أهدي من القسطا ، وإن الإنسان يطمئن إليها في الهداية إلى ما يشتهر من الأحكام . إنها تهدي المرء إلى الصواب الجارى على القواعد وإن لم يعرف القواعد . أنظر إلى الهمزات في علم الرسم كيف يكتب المرء يثد على ياء ، ويأمن على ألف ،

ويؤمن على واو ، تهديه ملكته التي اكتسبها بالمرانة والتكرار وإن لم يعلم القاعدة أو لم يستحضرها .

وكذلك الألفات ما يكتب منها ألفاً وما يكتب منها ياء ، فيكتب المرء رى بالياء ودعا بالالف ، كأن في منطقة اللاشعور فينا عالمًا يعلم أن رى أصلها الياء فتكتب ياء ، ودعا أصلها الواو فتكتب ألفاً ، ويكتب أغزى بالياء ، كأن عالمًا فينا يعلم أنها وإن كان أصلها الواو إلا أنه لما قيل فيها أغزىته كتبت ياء .

يعجب المرء كيف تهدي الملكة إلى الحق كأنما تستعصي من قواعد مكتوبة ، وتمتاز الملكة عن القواعد بالسرعة التي لا يبلغها الرجوع إلى القواعد . ولقد بلغ من اهتداء الملكة أنها تكتب المطرد على حسب القاعدة والشاذ على ما قيل من شذوذ ، فهي تكتب داود بواو واحدة ، وتكتب بعمر بواو بعدها ، وتكتب مائة بألف زائدة وإن لم تكن في هجائها . فإذا كانت هداية الملكة ما ذكرنا في الكتابة فلا عجب أن تهدي مثل هذه الهداية في الكلام .

قال أبو الفتح عثمان بن جني م ٣٩٢ في كتابه الخصائص : سألت الشجري يوماً فقلت له : يا أبا عبد الله ! كيف تقول : ضربت أخاك ، فقال : كذا . فقلت أفقتقول ضربت أخوك ؟ قال لا أقول أخوك أبداً . قلت : فكيف تقول ضربني أخوك ؟ فقال : كذا . فقلت ألسنت زعمت أنك لا تقول أخوك أبداً ؟ فقال : إيش ذا ؟ اختلفت جهتا الكلام . نقل أبو الفتح هذه الحكاية في باب عنوانه أن العرب قد أرادت من العلل

والأغراض مانسبناه إليها وحملناه عليها . واستدل بها على أن العرب كانت تعرف قواعد النحو والصرف ، ورأى أن ما قاله الأعرابي نظير قول النحاة : صار المفعول فاعلاً .

وليس ما ذهب إليه ابن جني من الاستنتاج صحيحاً . فهذا العربي لم يكن يرجع إلى قواعد ، وإنما كان يرجع إلى ملكته يستشيرها ويستهديها فنبت ملكته عن ضربت أخوك ، ولم تنب عن ضربني أخوك ، كما تنبو ملكة الكاتب عن كتابة الهمزة في يثد بالواو وفي يؤمن بالياء ، وإن لم يعرف القاعدة ولم يستشرها .

لعلنا بذلك قد طمأننا الذين يشفقون على اللغة من أن يكلوها إلى الملكة ، ويرون أن الملكة لا تكفي هادية ، لأن مذاهب العربية مختلطة متشعبة قريب بعضها من بعض ، لا يفرق بينها إلا العقل الواعي والعلم البصير . وقدمنا من الأدلة ما يدل على أنهم إذا وكلوها إلى الملكة فقد وكلوها إلى حفيظ أمين .

فليتأمل هؤلاء الذين يصدون — أو سيصدون — عن طريقنا فيما نحاول ، أننا نحاول كسباً جديداً للغة العربية ، فبدل أن تقصر على علم قواعدنا تكون لنا ملكة وهيئة راسخة من هيئات نفوسنا وجزءاً من كياناتنا ، وتكون هذه الملكة دعامة لفهم اللغة وتذوقها ، وفهم قواعدنا وأصولها دون جهد أو عناء .

ليعلم هؤلاء الذين يحبون النحو والصرف وقواعد البلاغة ، أننا نحب النحو والصرف وقواعد البلاغة أكثر منهم حين ندعو إلى تعليم اللغة

بأسلوب يكون ملكة اللغة في نفوس المتعلمين ، لأننا نريد أن نجعل قواعد النحو والصرف والبلاغة فوق العلم بها ملكات لنا مختلطة بلحومنا ودمائنا ، غائصة في أعماق نفوسنا ، وداخلة في منطقة اللاشعور فينا .

لقد ظفرت اللغة العامية مع عدم الاحتفال بها والعناية بتعلمها بأن صارت ملكة في النفوس ، فغلبت اللغة العربية التي لم تنظر بذلك إلى الآن ، وكانت لغة البيت والشارع والمدرسة ، ولغة الدرس والخطاب ، ولغة الأغاني والمسرح والخيالة ، وليس للغة العربية حظ في شيء من ذلك إلا أنها لغة الكتابة ، والذين يكتبون بها قليل ، وهذا القليل لم يكتسب الكتابة من القواعد وتعلمها ، إنما اكتسبها من طريق الحفظ والقراءة وتذوق الكثير من بليغ المنشور والمنظوم ، ومن مزاولة الكتابة والكلام بها ، حتى اكتسب نماذج ذهنية في نفسه ومناطق اللاشعور فيه ، يتكلم على مقتضاها ، وينسج على منوالها ، فلم لا نسعى لرفع اللغة العربية من مجالها الضيق المحدود إلى المجال الواسع غير المحدود ؟

لم نتركها خافتة ضئيلة النفوذ محدودة السلطان بعيدة عن الجماهير وعن كثير من الخاصة ، لا تعرفهم ولا يعرفونها ، مقصورة على طبقة قليلة من خاصة الناس ؟

إنما أريد بما أعرض من هذا التوجيه الجديد أن ننقذ اللغة العربية من سيطرة العامية وأن نوسع دائرة نفوذها في شؤون الحياة .

يا سبحان الله ! أيعلم كل صانع في الدنيا أنه لا يحذق المتعلم صنعته إلا بالمرانة والتكرار ، فلا يكتبونها بالقاء القواعد للمتعلمين وحفظها ، بل

بأخذونهم بالدربة والمرانة على أعمال صنعتهم الجارية على حدود قواعدها
حتى يحدقوا صناعتهم ، ولا يعلم ذلك رجال العلم في بلاد الشرق منذ آما
طويلة ، فاكثفوا في تعليم اللغة بدراسة قواعدها ورأوا تلك السبيل المثلى
في تعلمها ، وأنها تفيد الطالب الناشئ ، وتجعله قادراً على التعبير بها في
صحّة وإتقان ، ومن عجب أن إخفاق القرون في هذا السبيل لم يصرفهم
عنها ليجتثوا عن منهج أسد ، وطريق أقوم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

المنهج الجديد في تعليم العربية

ما فيه من فوائد

وجوب حذف القواعد من التعليم الابتدائي والأولى ، استبدال
المطالعة والحفظ بها — اختيار المحفوظات المناسبة لأذهان التلاميذ
— تعهد المدرس التلاميذ فيما يحفظون — وجوب بقاء التعليم بالحفظ
والمطالعة في التعليم الثانوي ، زيادة القواعد — مرحلة التعليم العالي
— خلق جو عربي — ما في المنهج الجديد من متعة للتلاميذ
والمدرسين — ما فيه من فوائد اخلاقية واجتماعية ومن علم بالحياة
— خلو درس القواعد من ذلك كله — التحذير من الأدب
المكشوف الماخن — بيان ضرره بالأخلاق — الكلمة الآن
لأولى الأمر .

لا أريد أن أضع منهاجاً مفصلاً للطريقة الجديدة لتعليم اللغة العربية ،
وإنما أريد أن أضع قواعد مجملة تتبع عند وضع هذا المنهاج ، وهذه مبنية
على ما تقدم بحثه .

يجب أن يحذف درس القواعد من التعليم الابتدائي والأولى ، لأن
القواعد كما قلنا لا تكسب ملكة اللغة ، وإنما هي فلسفة للغة وضوابط ،
فمن الواجب أن نسمي في أن نكون للناشيء ملكة اللغة أولاً .

يجب أن نستبدل بالقواعد المطالعة الكثيرة والحفظ الكثير والمحادثة والمحاورة .

ويجب أن يختار للتلاميذ ما يحفظونه بحيث يكون مناسباً لأذهانهم لا يعملو عليها ، وتؤلف لهم محاورات يحفظونها ويتحاورون بها وتكون مما تكثر في الكلام ويحتاج إليها في الخطاب .

ويجب أن يعلم أن هذه المحفوظات تحفظ لتكون نموذجاً ذهنياً ليقيس عليه كلامه من حيث لا يدري ، فيجب أن يعنى بهذه النماذج فتحفظ صحيحة لا غلط فيها ، ومعرفة لا لحن فيها ، فإنه إذا حفظها ملحونة ارتسم النموذج في ذهنه كذلك ، فنسج على منواله ، وأنفق مما اكتسب ويجب على المدرس أن يراعى تلاميذه ويعلم موطن الضعف في لغتهم ويزودهم بما يزيل ضعفهم ، ويقوم لسانهم ، فإن رأى منهم أنهم يجرون الفاعل في أحاديثهم فليعلم أنهم بحاجة إلى أن يحفظوا كثيراً من المقطوعات فيها أمثلة كثيرة للفاعل ، وليأخذهم بحفظها صحيحة غير ملحونة .

أما مرحلة التعليم الثانوى فيجب أن يظل التعليم بالحفظ والمطالعة فيها ويزاد عليه قواعد اللغة ، ولكن ليست القواعد التى بين أيدي التلاميذ الآن ، بل القواعد التى سأقدم مشروعتها ، التى تجمع الصدق والوضوح والسهولة .

ويجب ألا تقل العناية بالحفظ والمطالعة في هذه المرحلة بل يجب أن تزيد ، ويجب كما قلنا أن تؤلف لهم روايات تمثيلية أخلاقية يحفظون أدوارها ويقومون بتمثيلها .

ويجب كما قلنا أيضا أن يكاف التلاميذ بنخل دواوين الأدب واختيار أحسن ما يقرؤون ، ثم بحفظ أحسن ما يختارون ، وأن تعطى درجات لمن قام بعمل ذاتي في أيام العطلة الصيفية في الحفظ والمطالعة .

أما مرحلة التعليم العالي فهي كمرحلة التعليم الثانوي في الحفظ والمطالعة والقواعد ، ولكن يجب أن يتعمق في درس هذه القواعد ، وفي بحث أصولها وفي الموازنة بين مذاهب العلماء فيها .

فأما خلق جو عربي في المدرسة ، أو في دروس اللغة العربية خاصة لا يتكلم الطلاب والمدرسون فيه إلا باللغة العربية ، وتكليف التلاميذ بكتابة موضوعات ينشئون فيها الإشارة إليها فيجب أن تدخل في البرنامج الجديد لتعليم اللغة .

وينبغي أن يعلم أن تكليف التلاميذ بموضوعات ينشئون فيها ليس لغواً في طريقتنا كما هو لغو في الطريقة الأولى ، لأن الطريقة الأولى كانت تكلفهم الإنشاء وليست عندهم معان يكتبونها لقلة ما يطالعون وما يحفظون ، وليست عندهم ملكة اللغة العربية ؛ أما في الطريقة الحديثة فهي تكلفهم الإنشاء وعندهم معان خلقها المطالعة والحفظ والاطلاع على آراء العلماء ، وهي تكلفهم وقد رسخت في نفوسهم ملكة اللغة بالحفظ والمطالعة والحديث وسيسر ذلك المعلمين ويجعل الدرس لذيذاً لأنهم إذ يصححون كراسات التلاميذ في الإنشاء لا يطالعون على لغو من القول يقضى العين ويغنى النفس كما كان في الماضي ؛ بل يطلعون على أقوال لها حرمتها ومكانتها إذ هي بنت المطالعة الكثيرة والدرس الطويل .

ذلك أسلوب نراه كفيلا بكل ما نريد من رقى لغوى وبيانى لأنه كفيلا
بتكوين الملكات فى اللغة والبيان ، وبهذه الملكات تفهم اللغة وتتذوق
أولاً ، وتفهم أصولها وقواعدها ثانياً ، ونراه كفيلا أيضاً بامتناع التعلم
والذاذه ، وكفيلا بفائدته وخيره .

فأما إمتناع التعليم بهذه الطريقة فإنها تعلم اللغة بآداب السالفين ، وحكم
الماضين ، وبالأشعار البليغة ، والخطب الفصيحة ، وتواريخ الأمم ، وفى
كل ذلك غذاء للعقل ، وإرضاء للقلب ، وإمتناع للعاطفة ؛ والمرء يسر
ويأنس للخبر الغريب ، والنادرة الطريفة ، والحكمة النافعة ، والمثل
السائر ، والجواب المسكت ، والقول السديد ، والرأى الحميد ، وهذا كله
جعل فى الطريقة الحديثة مادة لتعليم اللغة . يطالع فيه ، ويحفظ منه ؛
والقول إن كان بليغاً ، والمعانى إذا كانت رائعة أنست بها النفوس ،
وهشت لها ، ووجدت فيها المتعة واللذة .

وأما الفائدة فأى فائدة أعظم من التأدب بآداب العلماء ، والاطلاع على
حكمة الحكماء ، والانتفاع بتجارب ذوى التجارب ، وهذا كله جعل فى
طريق تعليم اللغة ؛ والسكامة الطيبة إذا نزلت بالنفس وعلقت بها
واستوثقت منها ، وأيقنت بها ، فإنها تكون هادية ومرشدة ، يفتقح بها
المرء فى غدوه ورواحه ، وصبحه ومساءه ، كما قال الله تعالى : « ألم تر
كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى
فى السماء ، توفى أكلها كل حين بإذن ربها »

والمرء ماعاش بحاجة إلى الأدب الذى به تعمر القلوب ، وتركو

النفوس . قال عبد الله بن المقفع : (ولسنا إلى مايمسك أرماقنا من الماء كل
والمشرب بأحوج منا إلى مايثبت عقولنا من الأدب الذي به تفاوت العقول
وليس غذاء الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات
العقل . ولسنا بالكسد في طلب المتاع الذي يلتمس به دفع الضرر والغلبة
بأحق منا بالكسد في طلب العلم الذي يلتمس به صلاح الدين والدنيا) ؛
وإن المرء قد يفقيه الحرف من الأدب ويكون أرد عليه من جيش عمر صرم ؛
قال معاوية : لقد رأيتني وأنا أهم بالفرار يوم صفين وما يمنعني إلا قول
الشاعر :

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي
فأين من هذا كله القواعد وليس فيها متعة ولا لذة ؛ فليست عاطفية حتى
تثير العاطفة والوجدان ، وليست عقلية حتى تكون فيها لذة المعقولات لمن
اعتماد المعقولات ؛ إنما اللغة مواضعة واصطلاح ، وقواعد اللغة شرح
وتفسير لهذا الاصطلاح ، وليس فيها إلا بعض علل عقلية ؛ وهذا مغمور
وسط علل مدخولة ، وأسباب غير معقولة .

وكما أنها لا تثير لذة ولا تبعث متعة ، كذلك لا تحصل منها على فائدة ،
وما الفائدة منها وهي ليست حكمة ولا مثلاً ، ولا شرحاً لقانون من قوانين الحياة
وهي تبعد عن الحياة وتجاريها وعن محيطها الواسع وبحرها الجياش المضطرب ؟
وإن الذي يقرأ كتاباً في القواعد كالأشموقي أو المطول ، يخرج منه ولم يستفد
خبرة بالحياة ، بخلاف من يقرأ كتاباً كالكمال لأبي العباس المبرد ، أو البيان
والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛ فإنه يخرج منه بحكمة الدهور ،

وعظة الأيام ؛ ومهما فاتته فلن تفوته حكمة أو تجربة هي عصارة عصور ،
وخلاصة دهور .

وما أظن الأمم الإسلامية منيت بما منيت به ، بعد العز والمنعة والقوة
والصولة إلا من شغل علمائها وخاصتها طول عمرهم بكتيب القواعد التي
لا تكشف إلا عن طرف يسير جداً من هذا الكون الواسع ، أو بالحري
لا تكشف عن شيء إلا عن مواضع وإصلاح وتفسير لهذه المواضع
وهذا الإصلاح ؛ ومن انصرفهم عن هذا الكون الفسيح وعلومه ،
وعلى حوادثه وأسبابها ، وشؤون النفوس وخواطرها ، وتزكيتها
وتدسيته .

ما هذا الحظ العاثر ؟ قد جمع لنا المتقدمون أبواب الحكمة وتجارب
الحياة ، وكانوا أحرص الناس على حفظها حتى ينتفع بها من بعدهم وكان
حرياً بنا أن نغترف من هذه الموارد العذبة ، ونسقي من هذا السلسبيل
الصافي ، ولكن كان نصيب النافع منا الاعراض والنفور ، ونصيب غيره
الاقبال عليه والكاف به .

أى شيء أنفع وأجدى من حكم أفادها أصحابها بعد التجارب المرة
والعثار والخيبة ، والتردى والسقوط ، وبعد النيل تارة ، والاخفاق تارات
وبعد أن ذاقو حلو الحياة ومرها ، وصفوها وشوبها ، فأفادتهم التجارب
علماء ، فجمعوا هذا العلم فى جمل قصيرة ، وحروف قليلة ، لتكون أقل كلفة
وأيسر مؤونة ، ليسهل حفظها وادخارها إلى وقت الحاجة لينتفع بها ؟
وهنا شيء أرى من الواجب أن أنبه عليه ، وهو أن اسم الأدب أطلق

كذبا وزورا على تلك الآيات من النسيب والفضل المذكر والمؤنث ، وعلى وصف الخمر ومجالس الشراب ، وعلى أبيات البطالة والعجز ، وعلى أخبار الفساق والمجان ؛ فيجب أن يتحرز من هذه ولا تدخل في مطالعات التلاميذ ومحفوظاتهم لأن تأثيرها على الأخلاق شديد ، وإفسادها للمروءات عظيم ، فكم من مستقيم أخرجه عكوفه على هذا الأدب الزائف عن استقامته ، وكم من جادّ همهم المعالي وعظائم الأمور صيره هذا الأدب الزائف مسفّا ضئيل الأمل ؛ ولا يصح أن ينكر هذا كله ، فان تأثير القول في النفوس عظيم ، ونقضه للأسباب المتينة قوى ، ويجب إذ آمنّا بتأثير الكلمة الصالحة في النفوس أن نؤمن بتأثير الكلمة السيئة فيها أيضاً ؛ فإن المعاني إذا كسيت الألفاظ الرائعة ، والنظم البارع كانت حبيبة إلى كل نفس ، وكانت مداخلها إلى النفوس خفية ، ونقضها للطبائع المحكمة عظيماً ، ولأمر ما حذر النبي (ص) من كل منافق جهول القلب عليم اللسان .

وإذا دار الأمر بين تعليم اللغة من سبيل هذا الأدب الزائف وجهلها ، اخترنا جهلها ، لأنه خير لنا أن نعرب في أفعالنا ونلحن في أقوالنا من أن نعرب في أقوالنا ونلحن في أفعالنا .

الآن أشعر بما يشعر به من كان يحمل حملاً ثقيلاً فشى به أميلاً في صحراء محرقة حتى ارفض عرقاً ، وتقطعت أنفاسه تعباً ، ثم بلغ به مستراحاً ومقيلاً ، فرمى بحمله وجلس بجانبه ، فشعر بالراحة من ذلك الحمل الذي بهظه وأنقض ظهره .

أشعر بذلك لأنه كان حملاً ثقيلاً تلك الأمانة التي أخذ الله على العلماء
 ألا يدخروا نصيحاً ولا يجدوا سبيلاً لرفع أمتهم إلا أرشدوهم إليه ، ونهههم
 عليه ؛ وقد كان يحزنني أن تعلمني التجارب ما علمتني من قيمة القواعد في
 تعليم اللغة ، وضرر الشغل بها عن علوم الحياة ثم أكتفه ولا أبوح به ،
 والآن ولله الحمد قد خرجت من عهد الكتمان ؛ فبكت به ، ولم أكتف
 بالبوح حتى أعلنته ، ولم أكتف بالإعلان حتى دلت عليه ، ولم أكتف
 بالتدليل حتى صرفت القول على وجوه شتى من التزيين والتقبيح
 والترغيب والتحذير ؛ الآن وضعت الحمل وحمله آخرون .

الصعاب التي تعترض

تكوين ملكة اللغة العربية وتذليلها

مما يعوق تكوين ملكة اللغة العربية اللغة العامية ، العامة ،
سبقت فصارت ملكة ، فبعيد بعد أن نجعل العربية ملكة لأن
العامية تحريف للعربية — العامة تلاحقنا في كل مكان فهي لغة
البيت والشارع والمدرسة والأغاني الخ — ردهذه الشبهة بوقوع
ذلك — كثير منا اكتسبت العربية بعد أن اكتسب العامية ، اللغة
ملكه والملكه لا تكسب إلا بالتكرار قانون ثابت فيجب رد ماخالفه ،
هل امتنعت المدارس الأجنبية من تعليم اللغات بحجة أن لغتهم
صارت ملكة فتمنع غيرها — رد ذلك بمواز تغيير الأخلاق
والأخلاق ملكات — على أننا أخذنا بالحيلة نجتمعنا بين الأسلوبين
— وجوب جعل لغة الأغاني والمسرح والصحف الأسبوعية لغة
عربية — العربية لا تعوق تكوين ملكة العربية بل تعاونه .

لقد فاتحت كثيراً من رجال التربية والتعليم في مصر — ممن يهتمون
باللغة العربية — في هذا الأسلوب الجديد في تعليم اللغة ، فكانوا جميعاً يلقونني
بشبهة واحدة قد اتفق الجميع عليها وكانهم تواطأوا على إيرادها ؛ أوردها
من لا أحصى ممن يهتمون بشئون التعليم في مصر ، ومن قبل ذلك
أوردتها فيما بيني وبين نفسي .

وهذا دليل على قوتها ، وقرب تناولها ؛ فإن استطعت حلها فقد ذلت
عقبة كأداء في سبيل الإصلاح المنشود .

يقولون جميعاً : مما يعوق تكوين ملكة اللغة العربية عندنا أن اللغة
العامية سبقت إلينا فتكونت ملكتها فينا ، واللغة العامية تحريف للغة
العربية وخطأ فيها ، فإذا تكونت فينا ملكة اللغة العامية فهذا معناه تكون
ملكة الخطأ في اللغة العربية ، وإذا سبق الخطأ وصار ملكة تثبت ورسخ ،
فإذا أريد بعد ذلك إصلاحه وصيرورة هذا الإصلاح ملكة تعذر
واستحال .

ومما يزيد الأمر تعذراً واستحالة أننا لا نزال نسمع من والدينا
وإخواننا وأهلينا ومخالطينا وأصدقائنا اللغة العامية ، يتكلمون بها
ونكلمهم ، ونتفاهم بها ونتساجل ، فهي لغة البيت ولغة الشارع ولغة
المدرسة ولغة الأغاني ولغة التمثيل ولغة الخيالة ولغة بعض المجلات ، أينما
توجهنا وجدناها ، وحيثما أصغينا سمعناها ، وهذا معناه أن الخطأ واللعن
في اللغة العربية سبق فصار ملكة ، أنه لا يزال يتردد على أسماعنا وتردده
فيزداد رسوخاً ، حتى يختلط بلحمنا ودمنا فهما فعلنا للتخاص من ملكة
اللعن والخطأ لم يفدنا ، وكلما هربنا من هذه الملكة لحقنا ؛ فأين الفجأة
وأين المهرب ؟ وهي قد سبقت فاستحكمت فينا ثم أخذت تلاحقنا وتسابقنا
وتغلب علينا وتقهرننا . ولعل هذا هو الذي دعا الأقدمين إلى أن يياسوا
من تكوين ملكة العربية الصحيحة ، فاكتفوا بالقواعد والقوانين التي

تضبط أمرها مع التذنية والمعالجة ، ولم يسموا إلى ملكتها التي تعطى
التعبير بها دون قصد ولا تنبيه ولا تكلف ولا علاج .

وإني أقول في جواب هذه الشبهة أن ذلك يمين عسر اكتساب
ملكة العربية لا تعذر ، والمشقة لا الاستحالة ؛ فإنه لو استحال تكوين
ملكة العربية مع سبق ملكة العامية لما وقع لأحد . وكيف وقد وقع
للكثير من رجال اللغة والأدب ؟ حقاً إن هذا دليل على التعسر لا على
التعذر ، بدليل أننا نجد خلافاً من نفوسنا وخطائنا ؛ فكثير منا قد سبق
إليه في صباه ملكة العامية ، ثم عني بكسب ملكة اللغة العربية بالحفظ
والمرانة فاكتملها ، ولم تمنعه الملكة السابقة أن يكتسب الملكة اللاحقة ؛
بل إنني لأزعم أنه لا يكتب الكتاب ، ولا يشعر الشعراء ولا يخطب
الخطباء باللغة العربية إلا بفضل الملكة التي اكتسبوها من القراءة
والحفظ والاعتقاد والتي قاومت ملكات العامية في نفوسهم فغلبتها وظهرت
عليها لا بفضل القواعد وحدها .

لقد قام الدليل على أن لا سبيل إلى اكتساب اللغة إلا هذا السبيل ،
وهو أن اللغة ملكة والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار ، فإذا تعين هذا
السبيل بالدليل فلا معنى لتصيد الشبه من هنا ومن هنا للهروب مما أوجبه
الدليل وعينه الحجة ؛ وهل توقفت المدرس الأجنبية عن تعليم تلاميذها لغة
غير لغتهم بطريق الحفظ والحديث بحجة أن لغتهم صارت ملكة فيهم
فلا يمكن أن يكتسبوا ملكة لغة أخرى ؟ الواقع أن من الناس من
يجيد لغات كثيرة وكلها ملكات فيه ، وقد اكتسبها بطريق المحادثة

والحفظ ولم تراحم ملكة اللغة ملكة لغة أخرى عنده ، وإن كانت ملكة
بعض اللغات عنده أقوى من بعض فذلك لا يعنيننا ، لأننا في أصل تحصيل
الملكة لا في جودتها والمفاضلة بين الملكات بعضها وبعض . إن علماء
الأخلاق قد جزموا بإمكان تغيير الأخلاق وقالوا إنه يمكن أن يكون
الجبان شجاعاً ، والبخيل كريماً ، والشره عفيفاً ؛ والأخلاق ملكات ،
والخلق الذميمة تحريف للخلق الفاضل ، ورأوا أن التكرار كفيلاً بالتغيير ،
وما على الجبان إلا أن يتشجع ويعمل أعمال الشجيمان ، وما على البخيل
إلا أن يتسخى ويعمل أعمال الأسخياء ، ليكتسب الخلق الجديد ، ويتخلل
عن الخلق القديم .

فإذا كانوا قد جزموا بذلك في الأخلاق غير متحفظين ولا مترددين فما
أحرانا أن نجزم به في اللغة ولا نتحفظ ولا نتردد .

وليس ما يتصيدونه من شبه مما يشفع لنا أن نترك الطريق الطبيعي
لتعليم اللغة ونسلك طريقاً غير طبيعي في تعليمها .

على أننا قد أخذنا بالحيلة والحزم ، فلم نمنع القواعد إلا في الأقسام
الأولية والابتدائية ، فجعلنا التعليم فيها بالحفظ والمحاذثة فقط ، أما في مرحلة
التعليم الثانوي وفي مرحلة التعليم العالي فقد جمعنا بين الطريقتين ، طريق القواعد
وطريق الحفظ ، فإن لم يزدها قوة فليس يزيدنا ضعفاً ، وهذا ريثما يبين
للناس بالتجربة صلاحية الطريقة الجديدة لتعليم اللغة ، فإذا بان صلاحها
رفعنا القواعد إلا من التعليم العالي ومن المعاهد التي تعد معلم اللغة العربية .
إن ما يقال من الصعاب التي تعترض من يريد تكوين ملكة اللغة

العربية ، والتي تدفع بعض الناس إلى أن يظنوا أنها تجعل اكتساب هذه الملكة متعذراً ومحالاً إنما هو منبهة على مواضع العقاب في تحصيلها ، وليس من المحال التغلب على شتى هذه العقاب والصعاب ، فلتتلاف منها ما يمكن ملاقاته ، ولنبق للزمن ما عليه أن يتمه ، ومادونا نبذل الجهد المضني والزمن الكثير الذي هو رأس مالنا في تعلم العربية فعلياً أن نزيل من معوقات هذه الملكة كل ما يمكن إزالته ، وإلا كنا نهدم باليسار ما نشيده باليمين .

علينا أن نجعل أغانيها باللغة العربية ولا نسمح للغة العامية أن تكون لغة الغناء مادام ذلك يعوق ملكة العربية ونحن نبذل الجهد والمال في اكتسابها ، ولا يصح أن تتناقض في أفعالنا .

علينا أن نجعل روايات المسرح باللغة العربية ولا نسمح للعامية أن تحتل المسرح لأن ذلك يعوق ملكة العربية فينا ، ونحن قد ملأنا برامج تعليمنا باللغة العربية لتتعلّمها ، ولا نحب أن نكون كذلك الممثل الذي ظهر على المسرح ويده اليمنى أوراق ، ويده اليسرى أوراق ، فقيل له ما بيدك اليمنى ؟ فقال قواني . قيل له وما بيدك اليسرى ؟ قال نسّخ هذه القوانين .

عليها أن نحتم أن تكون لغة المجلات هي اللغة العربية ، ولا نسمح للعامية أن تحتل مكاناً فيها للغة نفسها ، وهكذا الشأن في الإذاعة وفي الصحافة .

وإذا كنا إذا بنينا بناء وشيدناه ، وبذلنا المال في تشييده ، لا نسمح

لغيرنا أن يهدمه ، فخرى بنا — ونحن نبني ملكة اللغة العربية فينا ، وننفق
في سبيلها كرائم أموالنا ، وزهرة شبابنا ، وأعز جهودنا — ألا نسمح للمسارح
ودور التمثيل والمغنين والمغنيات أن يهدموا ما نبنيه .

وعليها أن نبكر في تلقين التلاميذ نماذج من المحفوظات العربية .
وقد سهلت مدارس رياض الأطفال علينا هذه المهمة ، فالتلاميذ يذهبون
إليها في سن مبكرة ، فعليها أن تهتبل هذه الفرصة فتنعطيهم نماذج يحفظونها
تناسب عقولهم ، ولا تنبؤ عن أفهامهم ، مادامت الملكة السابقة لها
القوة والسيطرة والغلبة .

لقد غالى بعضهم وزعم أن تكوين ملكة العربية أسهل على الإنجليزي
والفرنسي منها على من سبقت له ملكة العامية ، وذلك مبالغة في
اليأس والقنوط .

إن العامية لا يمكن أن تقف في طريق تكوين ملكة العربية ، بل
إنى أرى أنها عون على اللغة العربية ، فمن السهل على من عرف العامية أن
يتعلم اللغة العربية وتكون عوناً له عليها ، وتطيعه ملكة اللغة العربية
بأسر وأسهل مما تطيع من لا يعرفها ولا يتكلم بها كالإنجليزي والفرنسي ،
لأن معرفة العامية تعلم الكثير من العربية ، فتعلم كثيراً من مفرداتها
كالأرض والسماء والسحاب والماء والترى والهواء ، وتعلم كثيراً من أساليبها
وتراكيبها ؛ والنقص الذي دخل على ملكاته من تحريف العامية شيء
سهل يمكن ملاقاته إذا سار في الطريق المستقيم ، عكس من لم يعرف شيئاً

من العامة ، فيبدأ في تعلم العربية من جديد كلمة كلمة ، وحرفا حرفا ،
وأسلوباً أسلوباً ، ونظماً نظماً .

قد بلغنا في نصره الأسلوب الجديد في تعليم اللغة العربية المبلغ الذي
وسعه الجهد ، وإن كان قليلاً ، وبلغه الوسع وإن كان ضئيلاً ، ولم نترك
حجة نفيد نصرته إلا تتبعناها ، ولا شبهة تدل على خلافه إلا أفسدناها .
ولم يبق للمهمنين على تعليم اللغة العربية في وزارة المعارف وفي الجامعة وفي
الأزهر عذر في ألا يصطنعوا هذا الأسلوب ؛ فقد وضع الحق ، وانخذل
الباطل ، ولم يبق عذر لمعتذر .

تأيميد رجال التربية

في القديم والحديث

لما ندعو إليه من تعليم اللغة بالتركيز

وجوب تضافر الأدلة لنزع الباطل الموروث — الأسلوب الجديد هو أسلوب العصور الزاهرة لسلفنا — الكتاب لسيبويه يكون الملاكمة فيه من شواهد تزيد على الألف عدداً ، ويعلم القوانين بما فيه من قواعد — اسم النحوى كان مرادفاً لاسم الأديب . وكذلك كان الأمر في تعليم البيان العربى — تحذير ابن الاثير من الافتصار على القواعد وإيجابه اكتساب الذوق العربى بالمزاولة — قول ابن السكيت — قول الجاحظ ان عويس النحوى لا يجدى فى المعاملات ولا يرغب فيه إلا من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الامور — قول عمار الكلبى — حدوث أسلوب القواعد فى العصور المظلمة — قول ابن خلدون — قول روسو وغوستاف لوبون وسبنسر — أساليب الامة فى الحياة عنوان عليها — الاخذ بالاسلوب المطابق لطابع الاشياء ، إتقاء حكم الامم علينا .

لقد كان يكفينى ما قدمته من الأدلة على فساد الطريقة الرسمية فى تعليم اللغة العربية ، وعلى صحة الطريقة التى بينتها وأفضت الكلام فيها ، ولكنى أعلم أن المؤلف شديد انتزاعه ، وأن النفوس تكره العدول عما وجدت

عليه الآباء والأجداد إلى شيء لم يكونوا عليه ، وربما خيل إليها أن السلف
الماضين لم يؤثروا هذه الطريقة على ما عداها إلا لفضلها وكفايتها ، وأن
العدول عنها إلى غيرها عدول عن الحق النافع إلى الباطل الضار ، ولو كان
في هذا الجديد خير لسبق إليه الأولون .

وإني أريد أن أبين أن الطريقة التي ندعو إليها هي طريقة العصور الزاهرة
لسلفنا الماضين ، وأنها لم تتغير إلى الطريقة التي نشكو منها إلا في عصور
الضعف والتأخر العلمي ، وأريد أن أذكر من أقوال السلف ما يشهد
بتفضيل هذه الطريقة على طريقة القواعد والقوانين لأونس القلوب بأن
ما أدعو إليه ليس شيئاً أنا ابتدعته ، وإنما هو شيء كان يعلمه رجال العلم
والتربية من آبائنا السابقين .

وأريد بعد ذلك أن أذكر بعض أقوال رجال التربية من علماء الغرب
في هذا الموضوع ، لأبين أن العقل والدليل ورجال العلم في القديم ورجال
التربية في الحديث وعلماء الشرق والغرب على أن اللغات إنما تكتسب
بال تكرار والحفظ والتمهيد والدربة وأن القواعد والقوانين لا تكتسب
ملكاً اللغة .

أول كتاب وضع في نحو اللغة العربية وعكفت عليه الأجيال هو
الكتاب لسيدويه ، وهو كتاب مليء بالشواهد من كلام العرب ، شعرها
ونثرها ، وكلام الله وكلام الرسول ، وأبياته تزيد على الألف ، وكان
الدارس له يحفظ أبياته وشواهد ويدرس قواعده ، فيكتسب ملكة اللغة
بما يحفظ من المنظوم والمنثور ، ويعلم قوانينها بما فيه من القواعد ، ولم يكن

النحوى هو من عرف القواعد فحسب ، بل كان النحوى هو من عرف القواعد ، وحفظ أشعار العرب ، وعلم تخريجها ، وحفظ أيامهم وخطبهم وحكمهم ومساجلاتهم ؛ ولذلك كان اسم النحوى مرادفاً لاسم الأديب ، وألف العلماء كتباً في تراجم النحويين سميت باسم طبقات الأدباء ، كما فعل ابن الأنبارى في كتابه نزهة الألباء في طبقات الأدباء . وإذا قرأنا ترجمة من تراجم أساتذة النحو في عصوره الأولى كالبرد والكسائى والفراء وابن جنى ، بهرنا ما نرى من حفظهم وإتقانهم وإطلاعهم على شعر العرب والمحدثين واستيعابهم لغة العرب ، والملكة التى جاءتهم من مزاوله هذه اللغة ، فما من غريب إلا وهم به محيطون ، وما من شاهد أو مثل إلا وهم به عالمون ، وما من أسلوب إلا وهم عارفون بمعناه قادرون على تخريجه .

ولم يكن الأمر كذلك فى النحو فقط بل كان أيضاً فى البلاغة ، فأول كتاب ألف فى البيان العربى وصل إلينا هو البيان والتبيين لأبى عمرو عثمان بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، وهو كتاب حوى من الأشعار والخطب والأحاديث والأمثال والمساجلات ما هو كفىل بتربية ملكة البيان ، والكتب التى وضعت بعده كالبديع لابن المعتز ، ونقد الشعر لأبى الفرج قدامة ابن جعفر ، والصناعتين لأبى هلال المسكرى ، كلها كتب ملئت بالشواهد والأمثلة ، ومتنوع الأساليب ، وقد عنوا بذلك ولزموه وحافظوا عليه ثقة منهم بأن كسب ملكة البيان إنما تكون بحفظ الأساليب التى استكملت شروط البلاغة ، وابن الأثير فى كتابه المثل السائر فى أدب السالكين والشاعر حذر دارس كتابه أن يقتصر على القواعد فى

في الكتاب ، وأوجب عليه أن يكتسب الذوق الأدبي بالاطلاع على بيان العرب من منظوم ومنثور والاكتثار من حفظه وممارسة أساليبه ؛ قال في مقدمة كتابه : « ومع هذا فإني أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه ، وسمحت حول حماه ولم أقع فيه ، إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الحكم التي بها تنظم العقود وترصع ، وتخلب العقول فتخدع ، وذلك شيء نحيل عليه الخواطر ، لا تنطق به الدفاتر . واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم ، الذي هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذاً ، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا ، فإن الدربة والادمان أجدي عليك نفعا ، وأهدى بصراً وسمماً ، وهما يريانك الخبر عياناً ، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً ، وكل جراحة منك قلباً ولساناً ، نخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بادمانك ما أخطاك ، وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريقة إلا كمن طبع سيفاً ووضعته في يمينك لتقاتل به وليس عليه أن يخلق لك قلباً ؛ فإن حمل النصال ، غير مباشرة القتال

وإنما يبلغ الانسان غايته ما كل ماشية بالرحل شملال^١ وكان كلما أفرط القوم في درس القواعد والتعمق فيها ظهرت آراء تدعو إلى القصص في درسيها والاقتصار منها على ما أقام الألسن . قال ابن السكيت : خذ من الأدب ما يعلق بالقلوب ، وتشتميه الآذان ، وخذ من النحو ما تقيم به الكلام ، ودع الغوامض ، وخذ من الشعر ما يشتمل على لطيف

المعاني ، واستكثر من أخبار الناس وأقوالهم وأحاديثهم ولا تولعن
بالغث منها .

وقال الجاحظ في رسائله : « فصل في رياضة الصبي ، وأما النحو فلا
تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن
مقدار جهل العوام في كتاب إن كتب ، وشعر إن أنشده ، وشيء إن
وصفه ، وما زار على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أرد
عليه منه ، من رواية المثل الشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع .
وإنما يرغب في بلوغ غايته ، ومجاورة الاقتصاد فيه ، من لا يحتاج إلى
تعرف جسيمات الأمور ، والاستنباط لغوامض التدبير لمصالح العباد والبلاد ،
والعلم بالقطب الذي تدور عليه الرحي ، ومن ليس له حظ غيره ، ولا معاش
سواه . وعويص النحو لا يجدي في المعاملات ، ولا يضطر إليه في شيء » .
وقد وجد شعور منذ زمن طويل بتفضيل تعلم اللغة بالملكة على تعلمها
بالقواعد . عيب على عمار السكابي بيت من شعره فامتعض وأنشد أبياتاً من
منها .

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم وبين قوم على إعرابهم طبعوا ؟
فهذا الشاعر قد فاضل بين الطريقتين ، وفضل الطريقة العملية على
الطريقة العلمية التقريرية .

وكان الناس يأخذون ألسنتهم بالإعراب ، ويلتزمون العربية في
كلامهم ، وكانوا يعيرون من يلحن ويحفظونه عليه ويتحدثون به . وما زال
الأمر كذلك في النحو والبلاغة حتى نبقت في المصور المظلمة تلك الحماقة

التي تقدر القواعد وتجعلها كل شيء في تعليم اللغة وتربية ملكتها؛ وأعطتها قوة العصا السحرية، فما هو إلا أن يضرب المرء بها حتى يستحوذ على لغة العرب، فيكتب بها ويخطب ويساجل وينظم الشعر، فأكثرنا من القواعد وأقلنا من عرض المثل والشواهد والأساليب، وورثنا نحن عنهم هذه الطريقة وسرنا عليها حتى الآن.

ورجال التربية في القديم والحديث والشرق والغرب طالبوا دعوا إلى تعليم اللغات بالحفظ والتكرار والمرانة والدربة، وبينوا أن القواعد والقوانين لا تعلم اللغة ولا تكون ملكتها، وطالما نددوا بهذه الطريقة التقليدية، وبهذا الأسلوب العقيم في تعليم اللغة؛ فابن خلدون الفيلسوف الاجتماعي م ٨٠٨ هـ بين في مقدمته أن اللغة ملكة، وأن الملكات لا تكتسب بالقواعد؛ وإنما تكتسب بالحفظ والتكرار. قال في فصل عنوانه «أن اللغة ملكة صناعية»: اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني ... (والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً، وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي صفة راسخة)، ثم بين أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم. وكان حرياً بأهل القرن الثامن وما تلاه من قرون أن يفتفخوا بآرائه وبما بسطه هذا العالم المجدد ودعا إليه من آراء في التربية، ولكن ابن خلدون رجل سبق عصره فلم تنفع به أئمة الشرق، ومن المؤلم أننا في عصرنا الحديث لم نفك قيود

ملكة = فهم راسخ

التقليد ، وننفذ عنا غبار الكسل ، ونحرر أنفسنا من هذه الطريقة التي تلاحقنا نتأجبها إخفاقاً بعد إخفاق ، وخيبة إثر خيبة .

هذا حديث الشرق وحديث الغرب أعجب ، فما من كاتب كُتب في التربية إلا وأنحى على طريقة القواعد ، ورأى أن اللغة لا تعلم إلا بالحفظ والمحاذنة ؛ فروسو رجل الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر نبه في صراحة على أن اللغات يجب أن تعلم بواسطة المحادثات لا بواسطة الصرف والنحو . والدكتور غوستاف لوبون المفكر الفرنسي ذكر في كتابه روح التربية أن الأمم الراقية لا تأخذ التلاميذ في تعليم اللغات بكتب النحو وإنما تأخذهم بالكلام المؤلف . ثم قال : وهذه الطريقة لا تحرم التلاميذ درس النحو . فهو يدرس النحو أحسن درس بهذه الطريقة اللاشعورية التي تحول النحو إلى ملكة راسخة لا إلى تكلف وتعمل ...

ودعا سبنسر الفيلسوف الإنجليزي في كتاب التربية إلى تعليم اللغات SLA =
بأسلوب أشبه بسنن الطبيعة التي يتعلم بها الطفل لغته الأصلية بلا معين NLA
ولا مرشد فيضمحل التعليم بواسطة القواعد ويعتاض عن ذلك بطرق ناجمة ، وذلك ما أفضى إلى تأجيل تعليم علوم النحو والصرف والبلاغة للطلاب . واستأنس في ذلك برأى المسيو مارسيل الذي ذهب فيه إلى أن علوم النحو والصرف والبلاغة ليست مما يبتدأ به في تعليم الأطفال ، ولكنها مقدمات ومكملات . ثم قال سبنسر : وقصارى القول أنه لما كانت علوم النحو والصرف والبلاغة إنما نشأت بعد تكون اللغة كان من الواجب

أن يتلقاها التلميذ بعد تكون اللغة . وسوى هؤلاء كثير من رجال التربية في العصر الحديث .

إن أساليب التعليم والتربية التي تسير عليها أمة من الأمم هي خير مقياس لعقليتها وثقافتها ومقدار نضوجها ، فإن كانت تجرى على قوانين العقل والوجود وتسائر الرقي الإنساني العام ، وتلائم روح طبائع الأشياء ، استدللت بذلك على ثقافتها ورقبها ؛ وإن كانت تخالف ذلك أمكنك أن تحكم على الأمة بالتأخر في مضمار الحياة . وبالضعف في شتى مناحيها العقلية والاجتماعية والسياسية ، وإن الأمم الرابضة حولنا ، والمتطلعة إلينا ، والتي تخالطنا وتجاورنا لتحكم علينا بما نصطنعه من أساليب في التربية والتعليم ؛ فلنأخذ بالأسلوب المطابق لطبائع الأشياء وقوانين الوجود في تعليم اللغة العربية ، إن لم يكن لإتقان اللغة والتوفيق في تعليمها ، فلاتقاء حكم الأمم علينا بالتأخر في مضمار الحياة .

الآمال التي ندركها

من هذا الأسلوب

كيف يتغير نظرنا إذا آمننا بهذا الأسلوب — موازنة بين آراء أصحاب الأسلوبين — إنه يرجى مع مرور الزمن أن تصبح اللغة العربية لغة رجل الشارع — وهذا يؤدي إلى جعل العلوم مشاعة في الأمة لا طائفية — توفير جهدنا إلى فهم علوم الحياة — هذا الإصلاح اللغوي إذن لإصلاح اجتماعي — الأمم الراقية تسير من سوء إلى حسن ومن حسن إلى أحسن الأمم الوانبة لا تغير — مثل لما تغير في الغرب — تقليدنا الغرب في الأساليب المادية — نحن أحوج إلى التغيير في أساليب العربية والعلم — حث على السير والتقدم .

لو اقتنع الناس بما ذهبوا إليه في تعليم اللغة العربية لتغيرت جهات نظرهم في التعليم وأصبحت لهم آراء غير آرائهم ، ونظرات غير نظراتهم فإذا فاضلوا مثلاً بين أثر الصحف وأثر المدارس في تعليم العربية ، فضلوا أثر الصحف على أثر المدارس ، ذلك لأن الصحف بذيوعتها وانتشارها

وقراءة الكثير لها تعمل على تربية ملكة العربية بالقراءة والدربة ، وهي ليست تعمل على ذلك في عدد محدود كطلاب المدارس بل في جميع القارئین في الأمة ، وهي ليست تعمل على ذلك في زمن محدود بل فيما شاء الله من ليل أو نهار ، فهي أجدى أثراً ، وأعم نفعاً ، وإذا كان كثير من القارئین يفهم الحديث بالعربية فذلك بفضل الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية لأنه يقرأها ويستقى منها الأخبار ، ويعلم منها أخبار دولته ، وأخبار الدول الأخرى ، وفي أثناء ذلك يتعلم العربية ويعتاد فهمها والحديث بها . أما المدارس فأثرها في ذلك قليل ، يقدر بقدر ما فيها من مطالعة ومحفوظات ، ويقدر ما فيها من متعلمين :

أما الذين لا يؤمنون إلا بالقواعد فلا يرون للصحف والمجلات فضلاً في تعليم العربية لأنها ليست تعطيهـم قواعد ، ولا تعلمهـم قوانين وإنما الفضل كل الفضل المدارس التي تعلمهـم إياها ، لأنهم لا يؤمنون إلا بها . وإذا رأوا اثنين أحدهما يتكلم العربية صحيحاً ويقرأها صحيحاً ويكتب بها صحيحاً وهو يجهل القواعد ، أو يعلم القواعد ويتقنها ولكنه لا يحسن الكلام بها ولا الكتابة ، حكموا بأن الأول أعظم إتقاناً للعربية وامتناعاً لها من الثاني ، كما يحكم لمن يعمل أعمال السباحة بأنه ساجح ماهر دون من يصفها ويبين قوانينها ولا يعرف عملها .

ولو قدر الله لمصر وللاقطار العربية الشقيقة أن نأخذ بهذا الإصلاح وأن تسير في تعليم العربية على هذا الأسلوب لأفادت من وراء ذلك أعظم فائدة ولاستطاعت أن تصل إلى النتائج الآتية :

١ - أن تدرك البلاد ما تنشده من تعلم العربية تعلماً يجعلها ملكة مدللة القياد لخدمتها فيستطيع كل شاب أن يتكلم ويخطب ويحاضر ويكتب بها دون ضعف ولا القواء بأيسر ما يكون من الزمن وبأقل ما يكون من المشقة .

٢ - أنه يرجى مع مرور الزمن أن تصبح العربية ملكة لجزء عظيم من الأمة يتكلمون بها ويتفاهمون فتصبح لغة البلاد وتغزو العامية وتحتل مكانها وهذا غنم عظيم يؤدي إلى أعظم النتائج .

٣ - ومن أهم نتائجه أن تصبح لغة الكتابة لغة التحدث في الشعب فيسهل عليه فهم ما يقرأ ، فكما لا يجد المرء في فهم الخطاب عسراً ولا مقشة لا يجد كذلك في فهم الكتاب عسراً ولا عناء ، فيسهل العلم على راغبيه ويسر للأمة على السواء ويتبدل الحال غير الحال ، فلا نظل على حالتنا الراهنة التي تخالف فيها لغة الكتابة لغة التخاطب ، مما أدى إلى ألا يفهم جمهور الأمة لغة الكتابة لأنها غير لغتهم التي يتكلم بها ، وأنى له أن يحصل العلم ما دام مكتوباً بلغة لا يفهمها فيكون العلم طائفاً خاصاً بطائفة مخصوصة لا يشيع ولا يذيع بين جميع طبقات الأمة .

٤ - وكذلك من أهم نتائجه أن تسير حياتنا طبيعة الأشياء ، وتكون أقرب إلى الطبيعة فننتعلم اللغة بأقل وقت وأيسر جهد ، ونفرغ إلى علوم الكون ، والوقت والجهد اللذان نفقهما في تعلم كيف نتكلم نفقهما في تعلم علوم الحياة حتى لا يسبقنا غيرنا إلى معرفة هذا الكون الذي نعيش فيه ومعرفة أسرارهِ ، وحتى لا نتأخر عن قافلة الحياة البشرية

السائرة في طريق المجد والقوة . نحن الآن ننفق نصف عمرنا لتعلم كيف نتكلم ثم ننفق ما بقي في تعلم علوم الحياة فلا بد أن يسبقنا هؤلاء الذين انفقوا أعمارهم في علم علوم الحياة وفي العمل لها ، ولا بد أن تقصر في مجارة هذه الأمم في ميدان العلم والثقافة وفي نواحي النشاط الحيوى الأخرى .

هذه أهم النتائج التى تترتب على هذا الإصلاح وذلك التجديد فى أسلوب دراسة اللغة العربية .

أرايتم كيف أن الإصلاح الذى ندعو اليه عظيم الخطر ، محمود العاقبة جليل الغاية ، وله ما بعده من نتائج نافعه مثمرة .

إنه من جهة يقرب هذا البعيد الذى جرينا إليه ولم ندركه وجرت الأجيال قبلنا إليه ولم تدركه ، وهو من جهة أخرى يوفر فى جهودنا وفى أعمارنا ويدخرها لنشاطنا الحيوى فى سبيل الحياة ، وفى فهم علوم الكون وأسرارها ، وهذا كسب ليس بالقليل ، فإننى أعتقد أنه لا فرق بين الشرق والغرب ، إلا أن الشرق بذل جهوده جلها فى معرفة اللغة ومعرفة أسرارها ، والغرب بذل جهده جلّه فى فهم أسرار الكون وسننه وقوانينه .

⑤ - وهو من جهة ثالثة يبيح ذخائر اللغة العربية وأخلاقها لطبقات الأمة المتعلمة ، ويمطيهم المفتاح الذى يفتحون به كنوزها الثمينة ، ذاك لأن اللغة العربية دونت بها علوم وآداب ودين وأخلاق وفنون ، وما لدينا من ذلك هو محصول ثلاثة عشر قرناً ، وليس ذلك منتوج العرب وحدهم ، بل هو منتوج العرب والأمة اليونانية فى أزهى عصورها والأمة الفارسية والأمة

الهندية ؛ فقد ترجمت إلى اللغة العربية علوم اليونان وآدابهم وأخلاقهم وعلوم الفرس والهند وآدابهم وحكمتهم في العصر العباسي ، وضم ذلك إلى ذخائر اللغة العربية ، وصار مسهلاً لمن يعرفونها أن يطلعوا على علوم العرب واليونان والفرس وآدابهم وأخلاقهم .

وقد كانت طبقات الأمة كلها محرومة من هذه الكنوز إلا فئة قليلة ممن توفروا على دراسة العربية واكتساب ملكة الفهم بها ، وكان يصح أن يقال ، بالنظر إلى الكثرة المطلقة في الأمة ، إنها أمة تعيش بدون علوم وبدون مثل عليا ، وبدون فنون وآداب ، إذ هم ليسوا يفهمون إلا العامية والعامية لم يكتب بها علم ولا فن ولا أدب ، ولم يكتب بها إلا بعض قصص لا توجه أمة إلى مثل عليا ، ولا تغني في الحياة فتيلًا ، فإذا أخذ بهذا المنهاج الجديد ، وترتبت ملكة العربية في نفوس الطبقة المتعلمة ، وانتقلت ملكتها إلى معاشريهم وخلطائهم بالمحادثة والمخالطة . فقد وضعنا كنوز العربية بأيدي الأمة المصرية ، تأخذ منها حين تشاء وحيث تريد ، ونقلناها من أمة لا علوم لها ولا حضارة ، إلى أمة ذات علوم وأخلاق وفن وآداب وحضارة .

لقد وقفنا وطال بنا الوقوف ، وسكننا وطال بنا السكون ، والعالم في سير وتقدم وحركة ، والوقت لا يسمح بعد بالانتظار .

إن في الأمم المتقدمة ظاهرة ، وهي أنهم دائماً يعملون عقولهم فيما ورثوه وفيما هم عليه ، فيصلحون منه ، ويغيرون فيه ، فإذا الفاسد صالح ،

والضعيف قوى ، والراكذ جار ، وإذا حركة التجديد والنشاط تشملهم جميعاً وتعمهم .

وإن في الأمم المتأخرة ظاهرة تناقضها ، وهى أنهم لا يحاولون إصلاحاً ولا يحاولون تقدماً ، والميراث الذى ورثوه من آباءهم لا يحسنون منه ، ولا يحملون فيه ، ويتركونه لأبنائهم كما كان أو أسوأ مما كان .

أنظروا إلى أمم الغرب فإن الإصلاح شمل عندهم كل شىء ، من شؤونهم المادية والمعنوية ، شمل آلات الحرب والقتال ، فبعد أن كانت السيف والرمح ، أصبحت المدفع والدبابة والطائرة والغواصة والمدمرة ، وشمل أدوات السفر ، فبعد أن كانت الخيول والجمال والمراكب الشراعية أصبحت القطارات والبواخر ، وشمل البريد فبعد أن كان يحمل على البغال والحياد والحمام الزاجل ، أصبح يطير بالبرق واللاسلكي ، وشمل أدوات الاضاءة فبعد أن كانت الشموع والقناديل ، أصبحت المصابيح والثريات الكهربائية . ومثل هذا التغيير والتجديد كان في العلم وأساليب التربية والتعليم وقد أخذنا عنهم الأساليب المادية وجددنا فيها كما جددوا ، ولم نأخذ عنهم الأساليب العلمية ، ونجدد فيها كما جددوا ، ونصلح فيها كما أصلحوا ، ويظهر أننا إلى التجديد في العلم وأساليب التعليم أحوج منا إلى التجديد في وسائل العيش المادية .

علينا أن نقوى ملكة النقد فينا ، وأن ننفذ غبار الكسل عنا ، وأن نفكر وننقد ونبتكر ، وألا ننظر إلى الأشياء التى بين أيدينا على أنها قد بلغت ذروة الكمال ، بل ننظر إليها على أنها عمل إنسانى محتمل

للتقص قابل للكمال ، وإن مهمة السلف فيما ورثوه عن الخلف أن يكملوا
نقصه ويصلحوا فاسده ، وإن يؤدوه إلى من بعدهم خيراً مما كان .
علينا أن نسرع في ذلك لأننا أطلنا الوقوف ، حتى أن رجلاً محافظاً
مثلي ضج من هذا الوقوف ، ونادى بوجوب السير والتقدم والاسراع .
يا ناق سيرى فقد أفنت أناتك بي
عمري وصبري وأحلاسي وانساعي

القواعد

لست أبغض القواعد ولا أزرى عليها ، بل أنا أحبها وأجلها وأعلم لها مكانتها .

أعلم أنها حفظت اللغة العربية طوال هذه القرون ، وأعلم أنها حكم فاصل إذا خانت المرء ملكته اللغوية يستشيرها فتحكم بالصواب ، وهي حصن حصين لجأت إليه اللغة فحماها من التغير والاندثار ، ولولاها لبادت كما بادت اللغات الأخرى ، والقواعد فوق ذلك تهدينا إلى وجوه الحكمة في هذه اللغة الشريفة وتقوى عقولنا بما تهدي إليه من تعليل .

هذا ما لا ننكره على القواعد إنما الذي ننكره عليها أن يكون بها كسب ملكة اللغة العربية وقد أبان الدليل أنها لا تكسب إلا بالحفظ والمراة والتكرار .

وعليه فاني أحض على درس القواعد للأغراض التي قدمتها وأتمنى أن يكون لها في نفوس أبنائنا التلاميذ محبة وإيثار وأن يكون لها لهذه المحبة وهذا الإيثار سبيل إلى عقولهم — أتمنى أن تحب إليهم ، وتستهوى أفئدتهم ، وتستأثر بعقولهم فيجدوا لدرسها لذة ومتمعة ، ويفقهوا أسرارها ، ويدركوا أغوارها ، ويعلموها علما قويا متيناً ، ولكني أجد أبنائنا التلاميذ يبغضونها أشد البغض ، ويجدون في درسها ألماً يحز في نفوسهم ، وبضيقون

بتحصيلها وفهمها ذرعاً ، يتخرج التلاميذ وهم لا يحفظون منها إلا القليل ، ولا يحسبون من هذا القليل إلا الأقل ، ولقد هالني هذا الانصراف عن القواعد ، وهذا الجهل بها فبحثت عن أسبابه وعلمته فوجدتها ترجع إلى أسباب ثلاث .

أولها — أنها درست لتلاميذ القسم الابتدائي وهم صغار لا تناسب عقولهم إذ أنها فلسفة للغة وعقولهم ناشئة لا يناسبها هذا التعمق ولا هذا الغوص فدرسوها دون أن يجدوا لها لذة فلم يفهموها ولم يدركوا سرها ووجدوا أنفسهم مجبرين على قراءتها والإنصات إلى دروسها وحبس أعضائهم عن النشاط والحركة الاستماع إلى ما لا يفهمون فأبغضوها ووجدوا لدرسها ضيقاً وحرماً ، وعلق بنفوسهم كرهها ، فلما كبروا وتفتحت أذهانهم وكان فيها قدرة على استكناها بقي معهم هذا البغض لدرسها وكانت عقدة نفسية بغض لها لا سبب لبغضه الآن لأنه كان بغيضاً اليهم من قبل لعدم فهمه وتذوقه وإكراههم عليه ، والعقل إنما يفهم الشيء ويعلمه بقدر حبه إياه وإقباله عليه فلم يفقهوها كباراً كما لم يفقهوها صغاراً .

ويضم إلى ذلك أن القواعد إنما رتبت في سنى الدراسة ترتيباً تصاعدياً ورتبت كل مرحلة على التي قبلها ، فإذا لم يفهم التلميذ ما قبلها صعب عليه إدراك ما بعدها .

فإذا استعصى عليهم أن يفهموا القواعد في سن الصغر لأنها لا تناسب عقولهم لم يفهموها في سن الكبر لأنهم يتلقون ما علمه متوقف على علم ما قبله . وهذا يفرض علينا ألا نعلم القواعد في هذه المرحلة من السن

ثانيها - أن المؤلفين المتأخرين مسخوا القواعد وشوهوها فألقوها إلى المتعلمين خالية من علمها وأسبابها وحكمها ؛ القوها جافة لاروح فيها ولا حياة ، وعلموها التلاميذ قواعد لاروابط بينها ؛ ولا يدري لماذا كان هذا الحكم ، ولماذا اختير هذا الوضع ، فكهروا دروس القواعد لذلك وإن المؤلفين المتأخرين فعلوا ذلك طلباً للاختصار واستمجالاً للفائدة لأنهم رأوا أن المطلوب هو القواعد ليجرى عليها ؛ وما عدا ذلك فضل ومشغلة .

وما دروا أن هذا الفضل هو الذي يثبت القاعدة ، وهو الذي يسيغها ويحمل الذهن قابلاً لها والنفوس مشوقة إليها .

وهذا يفرض علينا أن نبدأ بالتأليف من جديد فنذكر علل القواعد وأسبابها ، ونذكر الفروق بين الأحكام ولماذا اختلفت أو تماثلت ويجب أن نتحرى في التعليل لئلا نقع فيما وقع فيه من سبقونا من الخيال والجرى وراء الأوهام وذكر علل يعلم العقل بطلانها وأنها لم تدر بخلد واضعي اللغة أو المتكلمين بها .

ثالثها - أن العصور الإسلامية التي تقدمتنا اختلفت عليها حالقان من القوة والضعف والخصب والجذب ، فكانت العصور الإسلامية الأولى عصور قوة وعرة ، أخصبت فيها العقول ، وطمحت فيها النفوس ، فانتجت خير إنتاج واستغلت أعظم استغلال ، وكانت العصور المتأخرة عصور ضعف واضمحلال ، أجذبت فيها العقول ولم تعط ملكة الاستنباط وورثت عن سلفها ميراثاً علمياً عظيماً فتصرفت فيه بالاختصار والفهم

والتأويل ، ودخلت هذه العلوم في أذهانهم وخرجت فيها بعض المسخ
والتشويه ، وبعض التبديل والتحريف .

ونحن اعتمدنا في ثقافتنا على هذه الكتب المتأخرة وعلى الكتب
المستحدثة التي أخذت منها ، واعتمد مؤلفوها عليها .

ومن الواجب أن يدرس المنقطعون لدراسة العربية هذه القواعد دراسة
تاريخية فتدرس القاعدة في عصورها المختلفة ، وتسائر في سنيها المتعاقبة ،
ويعلم ما وقع عليها من تحريف وتغيير ، ثم تخلص القاعدة مما شوهها ومسحها ؛
وتبرز في أحسن صورها وخير معارضها .

يجب أن نعطي أنفسنا حق الإصلاح والتبديل ، وحق الابتكار
والتجديد فما حسن أن نبقي على قواعد مشوهة وعلوم ممسوخة مبدلة .

ويجب أن نعطي أنفسنا حق الحكم حتى على منتجات العصور الزاهية
فهذه سنة الوجود ، يضع الواضع ، ويبتكر المبتكر وبحسبه أن يكون
قد هدى إلى القاعدة من العلم ، ويأتي من بعده ليزيد فيما وضع ، ويصلح
ما ابتكر ، وبهذا تنمو العلوم ، وتعظم الفنون .

ولا يعيب المتقدمين ولا يغض من شأنهم أنهم فاتهم شيء وأدركه
التأخر . فالإنسان موكل به النسيان ولم يخلق معصوماً من الخطأ مبرأ
من الزلل إنما العيب علينا إذا بقينا نعتقد فيهم العصمة وفي عقولنا الضعف
فنعطيهما حق التأليف والابتكار ولا نعطي أنفسنا حق النقد والتحجيص
ونرى أننا أقل شأناً منهم وأصغر من أن نجري لهم في مضمار أو نزاجهم
في سباق ، أراني قد قلت ما لم يؤلف ، وذكرت ما لم يعتد ، فمن علوم

مسخت ، وقواعد حرفت ذكرها المتقدمون صحيحة ، وحرفها المتأخرون
ومن علوم وضعها المتقدمون وبقيت على ما هي عليه ولكنها لا تصبر على
محك النقد ، وإذا نقدت ظهر زيفها ، ومن قواعد جردت من عللها
وأسبابها ، فأصبحت جافة لا تقبل ولا تساغ .

وأرى أنه لا يصح أن يترك ذلك لا يمثل له ولا يؤتى بشاهد عليه فمن
الواجب أن يذكر لذلك بعض الأمثلة والشواهد وإلا كان إسرافاً في القول
ودعوى لا يقوم عليها شاهد ولا دليل وإلى القارىء بعض الأمثلة لعلها
تصلح شاهداً لما قدمناه في كتاب النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة
ما يغنيننا عن ذكر أمثلة من النحو فلنعمد إلى ذكر أمثلة من علوم العربية
الأخرى وهي علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع .

أولاً - إني لأعجب لهؤلاء الكتابين في البلاغة من المتأخرين يعمدون
إلى أسباب الحسن في الكلام التي هدى إليها المتقدمون فيعللون بها بغير
عللها النفسية ويسوون بينها وبين غيرها حتى يصرفوا الذوق عن الإحساس
بها وعن تذوقها ، كأنهم قد تواسوا فيما بينهم على أن يفسدوا هذا العلم
إفساداً حتى لا يبقوا فيه شيئاً صحيحاً .

هدى المتقدمون كمبد القاهر إلى أنه قد يوجد شيء في النظم فيكسب
الكلام حسناً وجمالاً . كالحذف فإنك تحس من الكلام المحذوف منه
بعض أجزائه في بعض الحالات جمالاً لا يكون إذا أنت ذكرت المحذوف
ومثل لذلك يقوله :

قالت سمية قد غويت بأن رأيت حقاً تناوب ما لنا ووفودا
غنى لعمرك لا أزال أعوده ما دام مال عندنا موجودا

وقوله :

تغالب حتى قلت داسع نفسه وأخرج أنياباً له كالمعاول

وقوله :

غضبي ولا والله يا أهلها لا أطعم البارد أو ترضى

وقوله :

وعلمت أنني يوم ذاك منازل كمباً ونهدا

قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقاً وقد

وقال عبد القاهر هذا باب يشبه السحر ، لأنك تراك أنطق ما تكون
إذا لم تنطق وأشد ما تكون بياناً إذا لم تبين ، إلا أن عبد القاهر بين أن
في الحذف حسناً ولم يبين سبب هذا الحسن وعلته ، واكتفى بأن يعرض
علينا الشيء الجميل ويضع أيدينا على موضع الجمال فيه وهو الحذف وبين
أننا لو ذكرنا المحذوف لما كان للكلام ذلك الحسن فأما العلة في ذلك فلم
يذكرها ونحن إذا رجعنا إلى نفوسنا نجد أن العلة في حسن الحذف في
هذه المواضع أمور نفسية وهي أن المحذوف تدل عليه قرائنه فإذا ذكر
كان ثقيلاً موضعه لأنه تعريف لما عرف وبيان لما بين وإذا حذف رفعت
المؤنة عن السامع بذكره ورفعت الكلفة التي تكمن عليه عند ما يسمع
حديثاً معاداً أو كلمة لم يجد فيها فائدة جديدة . وبالجملة فالكلمة الخالية من
الفائدة كالثقل تقضى العين بوجوده . فإذا لم تبصره في موضع كان يتوقع
وجوده فيه وجدت لذلك من الأتس والمحبة ما يغمر القلب سروراً وإذا
أردت أن تبين شيئاً شبيهاً بذلك فاستمع إلى رجلين أحدهما يطيل في

الكلام ويذكر ما لست بحاجة إلى ذكره ويطيل في غير طائل والثاني
يهجم بك على الفائدة من أقصر طريق وكلما سار بك جدد لك فائدة .
فانك تجد للأول ثقلا على القلب وضيقا في النفس وتجد للثاني خفة
وتجديد سرور ولذة . وشيء آخر وهو الهجوم بالسامع على المطلوب دفعه
فإن مطلوبه في مثل :

قال لي كيف أنت ! قلت عليل سهر دائم وحزن طويل
معرفة حاله فإذا قال عليل — فقد هجم به على المطلوب وكفاه مؤونة الانتظار .
هذا ما نجده في نفوسنا عندما نسر لحذف كلمة ونبحث عن علة هذا
السرور وهذا الارتياح .

وشيء آخر هذه الجدة التي تراها في هذا الأسلوب فإن الناس قد
اعتادوا الأسلوب الذي لم يحذف منه شيء لكثرة دورانه في الكلام ولم
يعتادوا الأسلوب الذي حذف منه أحد جزأى الأسناد لقلة دورانه في
الاستنهم فإذا سمعوا الكلام المحذوف منه شيء سمعوا الجديد الذي لم يألوه ،
والبداع الذي لم يعتادوه فاستمتعوا منه بما يستمتعون من الجديد المبتدع ،
والغريب المبتكر ، وليست هذه الجدة في السمع فحسب بل هي جدة في
الفكر فقد كنت تغلق المعاني من الألفاظ فصرت تغلقها من العقل
يدل عليها ، ويشير إليها ، وإن ذلك ليروعك ويؤثر عليك وإن كنت
لاتدري مآناه ولا مصدره .

جاء السكاكي والخطيب ومن بعدهما وأبوا أن يكون للحذف مزية
على الذكر وجعلوا الحذف في موضعه كالذكر في موضعه وجعلوها حالين

من أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال فيحصلان البلاغة ثم ذهبوا يبحثون عن المقامات التي تقتضى الذكر أو الحذف فقالوا أما حذف المسند إليه فللاحتراز عن العبث بقاء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من اللفظ أو العقل أو اختبار تنبيه السامع أو مقدار تنبيهه أو صوته عن لسانك أو صون لسانك عنه أو تأني الأفكار عند الحاجة أو ادعاء تعينه وجعلوا للذكر مقاما وهو أنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه أو الاحتياط لضعف التمويل على القرينة أو التنبيه على غباوة السامع أو زيادة الإيضاح والتقرير أو إظهار تعظيمه أو إهانته أو التبرك بذكره أو استلذاذه أو بسط الكلام حيث الأصغاء مطلوب .

فانت تراهم سوا بين الذكر والحذف عند المقتضى وقد كان يفهم من كلام عبد القاهر . أن للحذف مزية لا تكون لغيرها ، ولو مشينا على مامشي عليه عبد القاهر لعلمنا اختصاص الحذف بهذه المزية ، ودعانا ذلك إلى مراعاة الحذف في أساليبنا ما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

ونراهم قد ذهبوا عن العلل الحقيقية لجمال الحذف وهي ما ذكرناها إلى العلل التي ذكروها ، وبعض هذه العلل صناعية لا تخطر إلا ببال الذين توغلوا في صناعة العلوم العقلية كتخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ ، وبعضها لا يخطر للبليغ المتكلم ولا للسامع ببال . أما العلل التي ذكرناها فهي علل نفسية قد يشعر المرء بآثارها ولا يدركها ولكن الفيلسوف العارف بخفايا النفوس يدركها ويؤمن بها . ولقد رغبت أن أحمل كلامهم ما ذكرته من المعاني فقد قالوا (وأما حذفه

فللاحتراز عن العبث ببناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ (فقلت قد قالوا الاحتراز عن العبث وهذا يؤدي إلى الاستثقال والحذف يؤدي إلى رفع هذا الاستثقال ، وقد لحظوا في قولهم تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ أن الدلالة على المحذوف عقلية .

ولكنني رأيتهم يراعون في غير هذا الجانب فقد قال صاحب المطول في شرح ذلك (فللاحتراز عن العبث ، إذ القرينة دالة عليه فذكره عبث لكن لا بناء على الحقيقة في نفس الأمر بل (بناء على الظاهر) والا فهو في الحقيقة الركن الأعظم من الكلام فكيف يكون ذكره عبثاً ، وقيل معناه أنه عبث نظراً إلى ظاهر القرينة وأما في الحقيقة . فيجوز أن يتعلق به عرض مثل التبرك والاستلذاذ والتفيمية على غباوة السامع ونحو ذلك ثانياً — لي من فلان صديق حميم ، لئن سألت فلانا لتسألني به البحر ، لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد .

هذه أمثلة فيها جمال وبلاغة ويحس المرء بطرب لا يجده إذا قال فلان صديقي الحميم أو فلان كالأسد أو كالبحر — وقد أحس علماء البلاغة هذا الجمال فذهبوا يحدونه ويميزونه ويعرفون أسماياه وأخيراً سموها هذا النوع الذي أحدث ذلك الجمال التجريد وقالوا في تعريفه ما يأتي : — التجريد أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله فيها مبالغة لجمالها فيه — فقولنا لي من فلان صديق حميم يؤخذ منه أن فلانا بلغ من الصداقة حداً صح معه أن ينتزع منه آخر مثله في الصداقة ، وكذلك لئن لقيته

لتلقين به الأسد يؤخذ منه أنه بلغ من الشجاعة حداً يصلح معه أن ينتزع
منه أسد مثله في الشجاعة وذلك لكمال الشجاعة فيه .

وكذلك لأن لقيته لتلقين به البحر يفيد أنه بلغ من الكرم حداً صح
معه أن ينتزع منه بحر مثله في الكرم وذلك لكمال الكرم في الكرم .

وهذا تصور غريب لهذه الأمثلة التي فيها هذا النوع من البلاغة فلم
تجر عادة أن المرء إذا بلغ حداً من الكرم صح أن ينتزع منه بحر مثله
في الكرم وذلك لكمال فيه وليت شعري ما هذا الانتزاع أهو بطريق
الولادة أم بطريق آخر كانتزاع الصخر من الجبل أم كانتزاع الثوب
من اللابس ؟

هذه الحالة لا تدل على كرم ولا على مبالغة فيه فما عهد أن الكريم إذا
بلغ في الكرم المبلغ العظيم انتزع منه بحر يساويه في الكرم .

وإن فهم هذه الأمثلة على هذا الوجه يضيع بلاغتها ويفسد معناها
ويجعله تصوراً كمتصور البله والمرورين ، كريم يلد بحراً أو شجاع يشق
منه أسد وصديق ينتزع منه صديق .

وقد كنا نفهم من هذه الأمثلة قبل أن نعرف التجريد في علوم البلاغة
أن فيها حذفاً لأن لقيت فلانا لتلقين به الأسد الأصل لتلقين بلاقائه أي
بسبب لقاؤه الأسد فحذف لقاء وإنما كنت تلتقي بلاقائه الأسد لأنه شبيهه
فلست تلتقي بلاقائه إلا أسداً ، وما الجمال فيه إلا من جهة أنه أعطاك التشبيه
بطريق مكنته عنه لم يصرح به وأنه صورته بصورة الأسد حتى كأنك تحسه
وتراه ولست تجد أحداً له ذوق في البلاغة يفهم من هذه الأمثلة إلا ما قدمناه

وهو المعنى الذى يخطر لأول نظرة ولكن علماء البلاغة يأبون إلا أن يجعلوه تجريداً وتوليداً شئ من شئ لم يلد وانتزاع شئ من شئ لم يفتزع منه .

ومن عجب أن هذا المعنى المتبادر قد شعر به بعض العلماء فذكروه وأبان أن أمثلة التجريد مبنية على الحذف ، فأنكره العلماء المتأخرون وقاوموه ودفعوا فى صدره حتى لم يبق إلا هذا المعنى السخيف الذى ينكره الذوق وينبوه عنه الفهم ويجعل الأسد منتزعا من الشجاع والبحر متولداً من الكريم وذلك مبالغة لكمال هذه الشجاعة فى هذا الشجاع وكمال الكرم فى هذا الكريم .

ثالثاً - رأيت اليوم حاتماً ، ولقيت مادراً ، وسمعت سحبان ، وكان فى المجلس باقل - هذه مثل تدور على ألسنة المتكلمين ، والغرض منها التشبيه تشبيه الممدوح بحاتم فى الكرم وبسحبان فى الفصاحة وتشبيه المذموم بمادر فى البخل وباقل فى الفهاة ولكن علماء البلاغة لا يقتصرون على ذلك بل يتأولون فى حاتم فيمزعون من معناه وهو العلمية على الرجل المعروف من طيء ويجعلونه كأنه موضوع للجواد سواء أكان ذلك الرجل المهود من طيء أم آخر غيره فهذا التأويل يكون حاتم متناولاً للفرد المتعارف المهود والفرد غير المتعارف وهو من يتصف بالجود لكن استعماله فى غير المتعارف يكون استعمالاً فى غير ماوضع له فيكون استعارة .

وإنما فعلوا ذلك ليحافظوا على الأصل الذى وضعوه وهو أن الاستعارة تقتضى إدخال المشبه فى جنس المشبه به بجعل أفراده قسمين متعارفاً وغير

متمعارف ولا يمكن ذلك إلا في اسم الجنس ولا يمكن في الأعلام لأن العلم
وضع لذات مخصوصة لا يتناول غيرها فلهذا ارتكب هذا التأويل فيجعل
العلم اسم جنس ليمكن ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به .

ويرد هذا الذي ذهب إليه البيانيون أنه ليس من أحد يتكلم بهذه
الأمثلة يقصد هذا الذي قالوه ولا يفهم أحد ممن يسمعونها هذا المعنى الذي
ذكره فما من أحد يقول رأيت اليوم حاتماً ويدور بخلد أنه شبه ثم تأول
حاتماً فنزعه من العالمية وجعله كأنه موضوع للكريم الجواد وصار له
فردان فرد حقيق هو ذلك الجواد من طيء وفرد ادعائي هو ذلك المدوح
إلى آخر هذه السورة .

وليس أدل على فساد هذا الرأي من أنه دعوى لما لا يخطر بذهن متكلم
أو سامع فنحن نشرح أقوال المتكلمين بما يريدون ويعنون وكل هذه
السورة لا تخطر إلا بأذهان هؤلاء البيانيين الذين اخترعوها .

ضع يدك على أي بليغ تخنارة وسله ماذا يريد بقوله رأيت حاتماً اليوم
فانه يجيبك أردت تشبيهه هذا الكريم بحاتم في جوده وكرمه .

وسله أهو تأول في حاتم وأراد منه مطلق جواد وأنه صار يشمل
حاتم طيء وهذا الجواد المدوح فانه ينفي ذلك كله ويقسم أنه لم يرد شيئاً
من هذا ولم يرد إلا التشبيه بحاتم في الجود .

على أنه إذا كان معنى حاتم الجواد فلا استعارة لأن الجواد يطلق على
سبيل الحقيقة على المدوح بخلاف أسد في قولنا رأيت أسداً يرمي فانه
لا يطلق على المدوح على سبيل الحقيقة فكان استعارة وهذا التكلف العظيم

ليحافظوا على أصل اختراعوه وهو أن الاستعارة تقتضي دخول المشبه في جنس المشبه به وهذا الأصل أوردوا هم عليه اعتراضاً وهو أنه كيف يدعى دخول المشبه في جنس المشبه به ويقيم القرينة لتدل على أنه أراد المشبه لا المشبه به وأجابوا بأنه بعد الادعاء صار للمشبه به فردان فرد حقيقي وفرد ادعائي والقرينة قامت لتنفى الفرد الحقيقي وثبت الفرد الادعائي فدخلوا في باب آخر من الإغراب لم يرده متسكلم ولم يفهمه سامع .

ولعلكم تستعظمون هذا وتكبرونه وترونه أمراً هائلاً وسأخبركم بما هو أعظم منه وأشد هولاً . إن هذه العلوم التي ندرسها ونسميها علوم البلاغة ليست علوم البلاغة وإن علم المعاني ليس علم المعاني وعلم البيان ليس علم البيان وإلى الآن لم يكشف عن حقيقتيهما ولم يعرف موضوعيهما ، ولم يتصورا تصوراً يحدهما ويميزهما كما أنه لم يتصور البلاغة على حقيقتها فغلط في مسائل البلاغة بقدر ما في هذا التصور من غلط وكنت أود أن أبين ذلك الآن ولكنني آثرت أن يكون ذلك موضوعاً مستقلاً أضع فيه مؤلفاً أبين فيه كيف تصورها المتأخرون تصوراً غير مطابق للواقع وانبنى على ذلك أنهم حدوها حداً لا يطابق الواقع وفرعوا على ذلك مسائلها فجاء فيها ما لا يمت إلى علوم البلاغة بسبب ولا صلة .

أمنية

لقد استطاعت مصر أن تنجب الأدباء الذين يجذبون الأنظار اليهم ،
ويشغلون الناس بهم ، والذين يحملون الناس فيهم أقساما وشيعا فمنهم من
يعدح هذا ويذم ذاك ، ومنهم من يخالف . ومنهم من يتعصب لطريقة هؤلاء
ويزري على طريقة أولئك ، ومنهم من يعكس في الحكم ويخالف في
العصبية ، وبذلك وجدت حركة أدبية قوية ومدارس أدبية مختلفة .

ولكنها لم تستطع أن تنجب العلماء الذين يبدون الآراء العلمية في نقد
طرق التعليم وأساليبه ، وقواعد العلم ومسائله ، وأنظمة المجتمع وقواعده
ويكسونها من الزينة والملابس ما يجذب إليها الأنظار ، ويشغل بها
الناس ، ويفرق الناس فيها فرقا مختلفة ، ومدارس متباينة ، ينصر هؤلاء
هذا الرأي بالحجج والأدلة ، ويخالف هؤلاء فيبطلونه بالحجج والأدلة ،
ويخلقون في الأمة الرغبة في إدراك حقائق الأشياء ، وقوانين الوجود
وفي البحث عن أفضل الوسائل لترقية التعليم والأخلاق وأصلاح المجتمع
لتكون الأمة أسعد وأرقى وأبعد عن الشقاء .

بهذا تتدرج الأمة في مدارج الرقي ، وتترقى في مراق الخير والصلاح
فما أحوجها إذن إلى أن تنجب هؤلاء العلماء

لقد استطاعت أوروبا أن تنجب هؤلاء العلماء فنقلوها من فوضى إلى

إلى نظام ومن جهل إلى علم ، ومن فساد إلى صلاح . وأخرجوها من
العصور المظلمة إلى عصر النهضة والأصلاح ، وهذه المخترعات التي ينعم بها
الناس هي من آثار عصر النهضة ومن آثار هؤلاء العلماء .

ولم يستطيعوا ذلك إلا بعد أن آمنوا بعلمهم كأيمان المؤمن بمقيدته ،
وبعد أن أحبوه كما يحب المرء أهله ، وغاروا عليه كما يغار المرء على حريمه ،
وآمن العالم منهم أن نظريته فيها الخير لأمتهم ، وهو حريص على أن يقدم
لها من الخير ما يستطيع .

إنني حريص على أن أثبت في مصر هذه النهضة ، فهل أستطيع ،
وهل كتب القدر الحكيم لمصر أن تبلغ هذه المنزلة الكريمة بين أُمم
النهضة والمدنية الحديثة ؟

إنني أدعو رجال التعليم في مصر أن يجهروا بأرائهم التي يمتقدونها ،
وأن يدعوا إليها ، وأن ينصبوا من الأدلة على صحتها ما استطاعوا وأن
يؤمنوا بأن كلمة الخير لن تذهب سدى ، وأن الأمة لن ترقى إلا بخلع
أساليبها الواهنة الضعيفة ، والاستعاضة عنها بأساليب أحق وأقوى ، وأن
ذلك موكل إليهم ، وأمانة في أعناقهم ، وأن الخير للأمة في هذه الحركة
والشر في هذا الركود ، وترك كل ما كان على ما كان ، وأن واجبا عليهم
أن يعملوا لأمتهم كل خير ، وأن يجنبوها كل شر ، هذا الواجب يوجب
الدين والخلق وأول مبادئ الاجتماع .

إنهم إذا آمنوا بذلك كانوا حركة دائمة في البحث والتنقيب والاختراع
والاستنباط ، واقتراح الآراء التي يرونها ، ومناقشة الآراء التي يرفضونها ،

ولم يدعوا رأيا يظهر ، أو اقتراحا يقترح ، إلا وكان لهم فيه صوت ، فإن وافق ما يعتقدون نصره ، ودافعوا عنه ، وأقاموا من نصرته ماعساه أن يكون ند عن صاحبه ، وإن خالف ما يعتقدون أبانوا ضرره وبطلانه ، وأقاموا ما استطاعوا من الحجج على فسادة ونفروا قومهم منه ، وأبانوا ما فيه من زيف ونقص .

بذلك يستطيعون أن يخلقوا في مصر نهضة تحاكي ما كان في أوروبا من تلك النهضة التي يجنى العالم ثمارها اليوم .

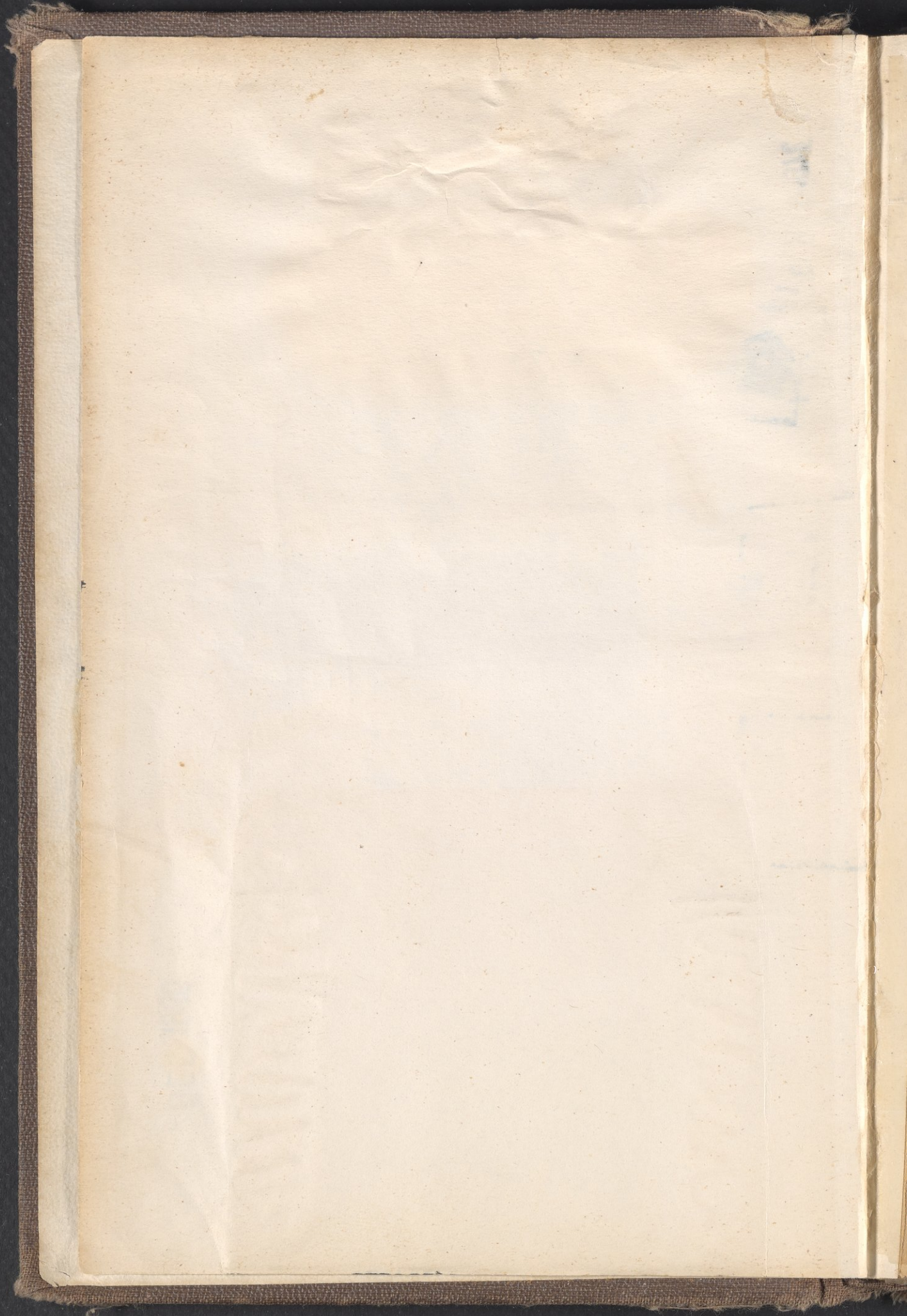
وإني لحسن الظن برجال التربية والتعليم في مصر ، وأرى أن فيهم ما شرحت من خلال ، وأن الأمر لا يحتاج إلا إلى مثل هذا التذكير . ولقد كتبت هذا البحث ، وقدمت هذا الاقتراح في تعليم اللغة العربية وأذعته بينهم ، وإنه لا اختبار سريع ، وفي يقيني أن هذا الاختبار سيسفر عن أنني لم أكن مسرفا في حسن الظن .

ووزارة المعارف ، والجامعة الأزهرية ، وجامعتا فؤاد وفاروق وجميع هيئات الثقافة العليا تحمل في عنقها الأمانة المقدسة ، التي سيكون في أداؤها مجد مصر ونهضة الشرق .

محمد عارف

٥ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٤

١٩ من مارس سنة ١٩٤٥



ولم يدعوا رأياً يظهر ، أو اقتراحاً يقترح ، إلا وكان لهم فيه صوت ، فإن وافق ما يعتقدون نصره ، ودافعوا عنه ، وأقاموا من نصرته ماعساه أن يكون ند عن صاحبه ، وإن خالف ما يعتقدون أبانوا ضرره وبطلانه ، وأقاموا ما استطاعوا من الحجج على فسادة ونفروا قومهم منه ، وأبانوا ما فيه من زيف ونقص .

بذلك يستطيعون أن يخلقوا في مصر نهضة تحاكي ما كان في أوروبا من تلك النهضة التي يجنى العالم ثمارها اليوم .

وإني لحسن الظن برجال التربية والتعليم في مصر ، وأرى أن فيهم ما شرحت من خلال ، وأن الأمر لا يحتاج إلا إلى مثل هذا التذكير . ولقد كتبت هذا البحث ، وقدمت هذا الاقتراح في تعليم اللغة العربية وأدعته بينهم ، وإنه لا اختبار سريع ، وفي يقيني أن هذا الاختبار سيسفر عن أنني لم أكن مسرفاً في حسن الظن .

ووزارة المعارف ، والجامعة الأزهرية ، وجامعة فؤاد وفاروق وجميع هيئات الثقافة العليا تحمل في عنقها الأمانة المقدسة ، التي سيكون في أدائها مجد مصر ونهضة الشرق .

محمد عرفة

٥ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٤

١٩ من مارس سنة ١٩٤٥

